

أَعْرِجْ حِصْنُ الْعَرُوسِ

اسم الكتاب : أعرج حصن العروس
تأليف : نور عبد الغني جمل الليل
تنسيق داخلي : ليا الجبلي
تصميم الغلاف : إسلام تلي
رقم الإيداع : 2026/8149
الترقيم الدولي : 978-977-6955-50-9
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع
بالتعاون مع أدابيا

للتواصل معنا

 scribe20199@gmail.com

 +201005079256

 +201099727510

  دار اسكرايب للنشر والتوزيع



جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

أَعْرِجْ حِصْنُ الْعَرُوسِ

نور عبدالغني جمل الليل

الطبعة الأولى

1448هـ - 2026م

إهداء..

أُديُّنُ لكَ بِحَقِّ الْحَرْفِ وَالْكَلِمَةِ.. لَيْلَى

أنا يعقوب .. وهذه حكايتي!

ضباب..

ضبابٌ في سَرابٍ، وسرابٌ في سَرابٍ،

أحدقُ في كل شيءٍ، سارحٌ فيما مضى، أواصلُ التلُفَتَ يمينًا
ويسارًا عبثًا.

لا أعلمُ ماهية هذا الوجود، ولستُ مدرِّكًا حقًا لكونه
حقيقيًّا ام لا. كل شيءٍ بات حوليًّا زائفًا إلى درجةٍ عدم
تصديقه، وحقيقيًّا جدًّا إلى درجة الجنون!

تُرى متى تلوّثت أجزاء حكايتي بلونِ الدَّم، وفاحت رائحتها
التنته في فصولها الأخيرة، هل عندما وقعتُ في هوةٍ عظيمة
ذلك المساء، الذي أصبحْتُ فيه شخصًا آخر لا أعرفه؟!
لن أبرَرَ مطلقًا، كيف تحولْتُ من ضحيةٍ إلى جَلادٍ، جَلادٍ لم
يجلِّدْ سوطه سواه، ولم يُعذَّبْ به أحدٌ غيره.

صحوتُ بعدها، في عالمٍ آخر لا يشبهني. عالم لا يتوقف عن
دقِّ الطُّبول.

اما أنا فكنتُ كناسك في محرابه، هرماً بطبعي، بائساً وكأني
عاصرتُ أحداثاً كثيرةً في عالمٍ مجهول لا أتذكر أيّاً من
تفاصيله المظلمة، لأشخاصٍ أرهقني عدم تذكرهم.
حيثُ غدت ذاكرتي كباحةٍ ضبابيةٍ تخلو من كل شيء،
وممتلئة بكل شيء.

إلا أنني في تلك اللحظة التي خسرتُ فيها كل شيء، كنتُ
قد تذكرت. كان الأوان قد فات لتغيير ما حدث. لا شيء
يعيدُ نبضاتِ القلب المضطرب ويشفي الجراح.
لا تلك الطبولُ ولا المعازف، ولا ملابسُهُنَّ التي تدلّت منها
نهودهنَّ، وتطايرت حوافها كل مساء.

هي فقط من تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك، تلك التي
كُلّما اقتربتُ أن أمسكَ بها اختفت، وتناثرت شذرائُها في
الهواء.

البداية الأولى..

بحيرة النور..

دَقَّتِ الطبول، وتصاعدَ دخانُ مشاعِلِ النار من أعلى المنابر
في تلك الباحة، التي نُقِشتْ جدرانُها بحروفٍ عربية تخلو من
أيّ تنقيط، متداخلةٍ فيما بينها، مكوّنةً كلماتٍ بلون الدم.
أكنْتُ في حلم أم حقيقة؟ حقًا لا أدري.

كلماتٌ كلما تمعّنتُ بها محاولاً قراءتها أصابني الهلعُ، حبيسًا
بين أسوارها وكأن لا مخرج لي.

أركضُ هلعًا، متقطّعُ الأنفاس، تائهٌ في كل شيء، كمن
يسبحُ في هذيانه، يرجو أن تنتشلهُ يدٌ يعرفها من هذا
الكابوس.

مُسرعًا انطلقتُ إلى منتصف الباحة تمامًا. هناك، حيثُ
ارتكز تمثالٌ من رخامٍ، لامرأةٍ، تملكُ عينين دعجاوين،

توشحت بغطاءٍ حريريٍّ أبيض، وأفترق شعرها المنسدل
لينساب حتى يغطي كعبيها البارزين. بينما نُحِتَ خطُّ
جِذْعها الرقيق وصولاً إلى قدميها، حيثُ باتت ترفعُ
إحداها عن الأخرى شيءً يسيراً، وتميلُ بأسطّةٍ ذراعيها
كجناحي عصفورٍ راقصٍ موشكٍ على التحليق.

جثوثٌ تحتَ نصبها الذي امتدَّ عاليًا وأرتفع، أتمنَّ النظر في
تمثالِ الحياةِ المنصوبِ أمامِ ناظري، أبتغي أن تُنفخَ الروحُ فيه.
فاحت روائح عبقة من ذكرياتٍ ضبابية، كلما اقتربتُ منه
اجتاحني حينٌ ما لا أفهم كنهه.

تنسكبُ الدموع من عينيّ، وقبل أن ينسكب حزني معها،
تصاعدت سحاباتٌ من دخانٍ كثيفة، واقتربت دقاتٌ طبول
موحشة. محتشدين جميعاً أمامها، كالأناجيل يمارسُ طقسه
المعتاد.

بينما كانت العجوز تذبخُ القرابين، سالت الدماء تحت
أقدام النساءِ الحافيات. وبعدها بدأت حلقةُ رقصٍ مستديرة،
يعقبها بكاءٌ وعويل.

كان القمر يشاهدُ ذلك، ملتهبًا كالجمر في السماء..
تمتعت العجوز وهي تنظر إليّ، والغضبُ يتأجج في عينيها..
حدقتُ فيهما والوحشةُ تملأ قلبي.

وضعت يدي على رخامها الأبيض لعله يهدأ، ثم أغمضتُ
عيني وفتحتهما رويدًا ونظرتُ بعيدًا خلف هذه الجلبة كلها.
كانت هناك، تقفُ بفستانها الأبيض ذي الأكمام الطويلة،
شاردةً مبحرةً في عوالمها وأخاديد روحها العميقة.

- كانت هي.. هي!

لذا وقفتُ مبتهلاً للحظات، أنظر إليها من مكاني، قبل أن
أهرع نحوها بلهفةٍ وشوق، متخطيًا أجسادهنَّ المصطفة
أمامي.

كانت تناظرُ القمرَ وتراقصه بعينيها، وشفها الزهري يتمتم
بكلماتٍ لم أسمعها، إلا أن ريح زهرٍ مألوفٍ داعب أنفي
حين اقتربتُ.

هَمْتُ بَعِينِي سَاهِمًا اسْتَنْشِقُ عَطْرَهَا، وَأَرْتَشِفُ بِصَمْتِ
جِرْعَاتِ الْهَوَاءِ الْمَعْتَقَةِ بِأَنْفَاسِهَا، مُتَقَدِّمًا نَحْوَهَا بِضَعِّ
خَطَوَاتِ.

أَصْبْتُ بِخَدْرِ لَذِيذِ، لِتَضَاعِلَ شَيْئًا فَشَيْئًا الْوَحْشَةَ مِنْ قَلْبِي،
وَتَتَلَاشَى فِي غَمَارِ النُّورِ الْمُنْبَعِثِ مِنْهَا.

كَالْمَغْنَاطِيسِ جَذَبْتَنِي إِلَيْهَا، فَمَدَدْتُ يَدِي نَحْوَهَا، وَقَبْلَ أَنْ
تَلْمَسَ أَنْامِلِي ضَفِيرَ شَعْرِهَا الْمُنْسَدَلَةَ أَسْفَلَ ظَهْرَهَا. أَدَارَتْ
وَجْهَهَا سَرِيعًا نَحْوِي.

فَتَلَاقَتْ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَاحْتَضَنْتِ الْمَقْلَعَةَ الْمَقْلَعَةَ، وَرَاحَتْ
النُّظْرَاتُ تَشْتَهِي نَفْسَهَا، وَرَاحَ الْحُبُّ يَقْبَلُ الْحُبَّ.

مَفْتُونًا بِهَا، ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِي مَسْحَةُ بِلَاهَةِ، وَأَخَذْتُ
أَمْعُنُ النَّظَرَ فِي وَجْهِهَا الَّذِي فَاضَ بِالنُّورِ، لِحَظَاتٍ مَضَتْ
وَالْحُبُّ يَفُوحُ مِنَ الْأَنْفَاسِ.

حَتَّى امْتَطَيْتُ بَعْدَهَا صَهْوَةً رُوحِي مُقْتَرِبًا مِنْهَا خُطْوَةً،
لِتَتَرَجَعَ سَرِيعًا إِلَى الْخَلْفِ، وَقَدْ تَحَلَّى الْوَجَلَ فِي عَيْنَيْهَا
الْوَضَاءَتَيْنِ، لِتَلُوذَ هَارِبَةً.

أفل نورها ليحلّ الظلام الحالك بعدة، مختنقاً بعتمتي،
مستديراً حول نفسي بلا هدى. وكلما هممتُ بالصراخ،
طوّق الظلام عنقي أكثر فأكثر، ليرتجفَ جسدي لاهثاً،
وقد ضاق بي المكان ذرعاً.

مستسلماً تماماً، بعدما شعرتُ بأنها النهاية الأمدية لروح
سرمدية، بعثرت جزئياتها في الهواء بعدما تنصّلت عن
الجسد.

تصدعت الأرض من تحت جسدي الملقى بعد رجّة عظيمة،
فالتهمني باطنها، ولجّثُ في أحشائها، في ظلماتٍ ثلاث،
بجسدٍ مرتعش وعينين قد أصابهما العمى من عتمة المكان.
وحين شعرتُ تماماً بأن الروح قد أوشكت على مفارقة
الجسد، وأن النهاية الحتمية قد حانت، شق سريعاً بصيص
من نور الظلام المسدل أمام عيني، لينقشع الليل، وأولد من
جديد بجسدٍ عارٍ.

لأصبح أمام عينيها، تنظر إليّ متجهّمةً.

قفزتُ سريعًا لأغطي جسدي خجلًا بلحافٍ ملقى بإهمال
على طرف الفراش، بعد ليلةٍ محمومة بالنشوة.

وقفتُ على قدمي العرجاء، متأدبًا، مائلًا برأسي نحو
الأسفل قليلًا، حيث كانت تقف بعكازتها، تتفحصني
بعينيها الغائرتين، بنظراتٍ ثابتة. تسارعت نبضات قلبي؛ فلم
تكن تحملُ في يدها قربانًا، سرت على جسدي قشعريرة
خوف بأن أكون القربان حينها.

اتفرسُ ملامح وجهها متعجبًا؛ للمرة الأولى، وقد رَسَمَ الزمنُ
على وجهها خارطته، لتشي بعقودٍ قد مضت. أنظر إلى
تضاريسها متأملًا من جبال وهضاب، ودماء أزمنة عديدة
تجري بين أحاديدها تجاعيدها المتفرعة. أهدقُ في نار عينيها
الموقدة بثورات حروب امتدت على مدى عصور. متخبطًا
بسيل جارف من فتنٍ عمياء تتدفق من بين جفنيها.

وما هي إلا لحظات حتى جثوت لاهثًا اضعُ يدي على
صدري متأوِّه من شدة الألم، وكأن قلبي قد صار بين يديها
تعصره.

لتترأى لي تلك الأحداث من المهد إلى اللحد، مثل شريط
صورٍ تومضُ بسرعة البرق في رأسي.

دقائق قليلة، حتى أرخت عضلات وجهها المتجهم شيئاً
فشيئاً لتبتسم لي. وقفتُ مبهوراً أمام الضوء الساطع الذي
أنبثق من بين فكها العريضين.

لم تكن ابتسامة، بل كانت فخ، لأسقط أرضاً، وتلتهمني
أمواج من نور سبحتُ فيها متخبطاً.

دُفَّت الطبول وصُبت الخمر على الأقداح، نشربُ حتى
الشمالة. لا أذانَ في هذا المكان يُسمع، لا صلوات تقام هنا.

وحين اعتراني زمهرير الشوق، وأرتعد الفؤاد للقيهاها، جثوثُ
باكياً تحت تماثيلها المنصوب، متضرعاً أن تُنفخ الروح فيه.
وأنفلق قلبي رهبةً حين رأيْتُ الجفن المنحوت قد رمش!

دبَّت رعشة الحياة فيه لتعطس، فأقول: أسلمي، فتسلم.
وأقول: أحمدي، فتحمد. وأقول: اسجدي، فتسجد.

ثم نرقصُ معاً رقصة الحياة، على أنغام نشيجٍ منتحب، مزيجٍ
من لَذَّةٍ وألم.

أُمتعُ عينيَّ بجماها المرسوم كلوحةٍ، وأشهد الخلائق كلها
على حُبها هذا المساء. ثم تضحك لي بصوتها العذب،
فيذوب قلبي من شدةِ الوله، وتستدير راقصةً رقصة
الدرويش، وثوبها الأبيض الحريري يطير مرفقاً، كاشفاً عن
ساقها الممشوقتين.

أغضُ بصري؛ فما كنتُ شخصاً يبيحُ النظر في مقامها.
وكيف لا، وهي كالزهرة؛ يفوح عبقُ طهرها، وتملأ رائحتها
المكان وجوفي.

لكنني أفتحُ عينيَّ من حُلُمٍ كانت تُغني فيه وترقص، لأنظر
إلى جانبي فأجد أخرى لا تشبهها. اشتاقت جميع حواسي
إليها، وحين يحلُ المساء، أنظر إلى الحوريات الراقصات باحثاً
عنها، وأصيحُ لهنَّ السمع عليّ أميزُ صوتهما.

تتشابه الوجوه في نظري، والأصوات في سمعي، وتمتزج الروائح
كلها، فأفقدُ الإدراك.

وحين تَمَّتْ أغصانُ اليأسِ في رُوحِي شاهقَةً، عادت لتشرق
الدنيا نورًا.

امتلاأت رُوحِي فرحًا حين رأيتها تقف مبتسمة، تنظرُ بغنج.
انفجرت أسارير رُوحِي دهشةً.

جرتني قدماي نحوها متكئًا على عصا خشبية، هنيةً حتى
اختفت ثانية.

ابحثُ عنها فلا أثر اتخبطُ بينهن. أصرخُ: أين أنتِ؟ كأنها
انغمست في سحابةٍ من نور. لحظات حتى رأيتها فجأةً
تقف تُعطي ظهرها؛ أسرعُ مهرولًا نحوها أمدُ يدي إليها،
فإذا بها تستدير نحوي مبتسمة، وتغمري بين أحضانها.

يزيح الضبابُ عن عيني لأجدها أخرى غيرها، تشبهها ولا
تشبهها، هيهات بينهما!

اصابني اليأس مسلماً لها زمامُ الأمور. لتغمزَ بطرفِ عينها
للأخريات، ثم تمسكُ معصمي بدلال، وتمشي بي نحو
مخدعها.

وأنا مثل جروٍ لاهت خلف شبحها الضاحك ونظرتها
الفاتنة.

وهكذا يمضي بي الحال، أطوفُ من مخدعٍ لآخر، أبحثُ عنها
في عيونهنَّ، وعن رائحتها على أجسادهنَّ، ولا أجدُ في
أحضانهنَّ إلا الموت وهي الحياة.

وفي ريجهنَّ جثثٌ وبكاء، وعلى أسرتهنَّ جمراتُ السعير،
وويلٌ مستجير في أمسيات حياتي التي تخلو منها.

صرتُ أبحثُ عنها في حجراتِ الليل الطويل، والصباحاتِ
المتتالية، علَّها بين أهدابِ المساء، أو في مقل النهار تختبئ،
ساجدةً في محيطاتِ الغيابِ دون عودة.

أتمعنُ في عينيها اللتين لولاهما ما ولدتُ وما كنتُ. ثم
تضحك لي، فتَهزُّ أركان قلبي ويمحو ضياؤها لياليَّ السوداء
المشؤومة.

يباضُ كثيفٌ يحجبُ عني الرؤية، وصوتُ ضحكتها
ينخفض شيئاً فشيئاً حتى يختفي.

أَفْتَحْ عَيْنِي مِنْ حِلْمٍ كَانَتْ فِيهِ ضَحَكْتُهَا تَهْتَزُّ لَهَا أَرْكَانُ قَلْبِي،
وَتَتَفَجَّرُ بِهَا عَيُونُ الْحُبِّ لِتَسِيلَ فِي أَوْرَدَتِي، تَسْقِي وَدْيَانِ
رُوحِي وَأَبَارَهَا. وَهَكَذَا، صَرْتُ لَا أَلْقَاهَا إِلَّا عِبْرَ الرُّؤْيَى
وَالْخَيَالَاتِ.

أَعُوذُ مُجَدِّدًا إِلَى عَطَشِي، بَاحِثًا عَنْ جُرْعَةٍ مَاءٍ مِنْ حَوْضِهَا
الطَّاهِرِ، مِنْ مَخْدَعٍ لآخر. فِي أَمْسِيَاتِ اللَّيْلِ الرَّاقِصِ، أَرْفَعُ
النَّخَبَ عَالِيًا عَلَى شَرَفِ أَجْسَادِهِنَّ الَّتِي تَهْطُلُ مِنْهَا فَوَاكِهُ
نَتْنَةٍ، وَشَرَابُ آسَنِ.

مَا كُنْتُ أَرَى فِي ذَاكَ نَعِيمًا، مَا أَنَا هُنَا إِلَّا سَقِيمٌ أَبْحَثُ عَنْهَا
فِي ثَنَايَا رُوحِي وَأَزَقَةَ قَلْبِي؛ صَاحِبَةُ الضَّحْكَةِ الْعَذْبَةِ، وَالْخُدُ
الْمَوْشَى بِالطَّهْرِ وَالْعَفَافِ.

وَحِينَ يَحِلُّ الْمَسَاءُ، وَيَتَرَبَّعُ الْبَدْرُ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ سِرَاجًا
مَنْوِرًا، نَذْهَبُ سَوِيًّا إِلَى بَحِيرَةِ النُّورِ.

غَنَاءٌ وَعَزْفٌ وَطَبُولٌ، لِحَوْرِيَّاتٍ كَأَنَّهُنَّ لَوْلُؤٌ مَكُونٌ، أَعْطَاهُنَّ
اللَّهُ مِنَ الْجَمَالِ مَا أَعْطَى. حَتَّى إِذَا بُهِتَ هَذَا الْجَمَالُ أَوْ
أَصَابَهُ ذَبُولٌ، انْطَلَقْنَ جَزَعَاتٍ إِلَى بَحِيرَةِ النُّورِ،

يَجِدُّونَ شَبَابَ أَجْسَادِهِنَّ، فَتَرَى اللَّيْلَ مُسَدَّلَ عَلَى شَعْرِهِنَّ،
وَالْبَدْرَ فِي وَجُوهِنَّ مَنِيرَ.

يَقْهَقِهِنَّ بِمَرْحٍ، يَمْشِيْنَ بِنَعْمٍ، يَتَقَفَرْنَ نَحْوَ بَحِيرَةِ النُّورِ.
أَتَأْمَلِهِنَّ بِيَضِّ حُسْنَانٍ، يَنْسَابُ الْمَاءُ عَلَى أَجْسَادِهِنَّ الْفَاتِنَةِ،
يَتَرَاقَصْنَ رَافِعَاتٍ أَذْرَعِهِنَّ لِلْأَعْلَى مَائِلَاتٍ بِهَا يَسِرَةُ وَبِمَنَّةِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا لِحَظَاتٍ حَتَّى رَجَّتِ الْعَجُوزُ الْأَرْضَ بِعَصَاهَا
فَامْتَلَنَ سَرِيعًا طَائِعَاتٍ، كُلُّ مِنْهِنَّ تَمْسُكُ بِيَدِ الْأُخْرَى،
رَافِعَاتٍ جَمِيعِهِنَّ رُؤُوسِهِنَّ إِلَى الْأَعْلَى مَغْمُضَاتِ الْأَعْيُنِ.

تَنَاطَرَتْ حَوْلَهُنَّ الْيَرَاعَاتُ الْمُضِيئَةُ كَأَنَّهَا النُّجُومُ، وَأَنْعَكَسَ
قَرَصُ الْقَمَرِ عَلَى وَسْطِ الْبَحِيرَةِ فَتَوَهَّجَتْ بِنُورِهِ.

تَرَاقَصَتْ عَيْنِي مَتَسَائِلًا وَقَدْ دَبَّتْ قَشْعِرِيرَةٌ تَسْرِي فِي
جَسَدِي، أَيْنَ أَنَا؟ وَمَا الَّذِي يَجْرِي؟

رَفَعْتُ بَعَيْنِي نَحْوَ الْقَمَرِ أَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ الْعَابِسِ، وَقَدْ بَدَأَ أَكْبَرَ
مِنْ حَجْمِهِ الْمَعْتَادِ بِكَثِيرٍ، وَهُوَ يَحْتَرِّقُ فِي أَعْلَاهُ مَتَوَهِّجٌ بِحُمْرَةٍ.

حيث أرتد عليه انعكاسه الذي توسط رقصتهنَّ المستديرة
التي تُقام وكأنها طقس عبادة.

صدحت حينها اصواتهن مبتهلاتٍ في خضوع، ردد معهنَّ
النسيمُ العليل حيث هبَّ مداعبًا أوراق الأشجار في أغصانها
لتصيح بفحيحٍ عذب:

يا مياه البحيرة العتيقة..

جددي لي شبابي..

أعيدني لي ضيائي..

كوجهِ البدر..

أريد ان أكون في السماء..

**

يا مياه البحيرة العتيقة..

استعيدي لنا حوراء من قلبِ يعقوب..

أخبرينا ما حدث..

استعيدي صغيرتنا..

لتنيرَ بصيرتنا هذا المساء..

كلما دوت أصواتُ التراتيل علت ألسنة النار أكثر. تسرعُ
العجوز لذبح القرابين، فيعلو الشعاع عاليًا، ينيرُ بؤرة المكان
العميقة التي تحيط بي، كاشفًا عما حجبته الظلام لسنواتٍ
عن عينيّ.

تجلى حينها بوضوح سفوح جبلٍ شامخ ارتفعت مدرجاته
عاليًا، فرش بسجادةٍ خضراء، وبحلته البهية بدى وكأنه
عروس في يوم غسلها¹.

من الأرض امتد حتى قمته التي نُصبت عاليًا كتاجٍ في سماءِ
المدينة، أو ربما كرايةٍ ملوَّحة تدل على الشجاعة والصمود².
بدى وكأنه طوق نجاة ظهر فجأة لينتشلني، رحتُ أمدُ يدي
إليه راجيًا، مسافرًا بناظري نحو قمة العروس³، حيث قمته
العالية.

رأيتها تقف هناك، ترفرف حواف فستانها الأبيض بمبوب
النسيم العليل، وقد بدت كطيرٍ حمامٍ حزين.
إلا أنها بقيت شامخة وهي تبسطُ بذراعيها في الهواء تفردهما
كأجنحة طير، بينما سمت برأسها عاليًا تعانق السماء، تطيلُ
النظر نحو القمر، وقد أوشكت شعلُ عينيها على الانطفاء.

1. تقليد بمخي حيث ترتدي العروس فيه ثوب اخضر.

2. إشارة لقصيدة الشاعر عبد الله البردوني.

3. اسمه جبل صبر ويطلق عليه سكان المنطقة بالعروس لجماله.

راقبتها بقلبٍ مُضطربٍ ونَفْسٍ كاد أن ينقطع، وهي تقفُ
بقدميها الحافيتين، ثم تقدمت نحو الحافة شيئاً يسيراً ورفعت
بإحدى قدميها ليتجاوز حدود المنحدر الصخري لقمة
العروس.

أُجِظْتُ عيناى وتسارعت نبضات قلبي رعباً، فصرختُ
عالياً: "لا تفعلِ.. باللهِ عليكِ لا تفعلِ.. لا.. لا!"
دوى صوتي صخباً، لتتوقف الحوريات عن أداء التراتيل،
ورمت العجوز بسكينٍ ذبح القرايين، وأنطفأ النور الساطع
بنيران البحيرة، ليعود الظلام يسود كل شيء مانعاً عني
الرؤية.

دَيْن قديم..

في العَبَشِ الباكر، أَسْرَعْتُ نَحْوَ دِرَاجَتِي النارية، شَعَّلْتُهَا،
وبسرعة متوسطة أخذتُ أَتَجَاوَزُ منحدِرَ التل الذي تعلوه
دارنا.

واصلتُ طريقي بالسرعة ذاتها، متجاوزًا الحشائش، حتى
بلغتُ طريقًا من الإسفلت يفصل بين سهلين شاسعين.
كان الجو باردًا، وضوء النهار لا يزال خافتًا، ونسائم الفجر
العليلة بدأت تتنفس عبر السهول الخضراء الممتدة، لتزيح
عنها الضباب البعيد، فتتضح التلال وما يجاورها من
مرتفعات جبيلة مكسوة بالخضرة.

واصل الهواء هبوبه عليّ من كل جانب، فتحتُ فمي لأعَبَّ
منه جرعةً واحدة، ثم زفرتها بارتياح. بسطتُ ذراعيّ في
الهواء، واطلقتُ بعد ذلك صرخةً مبهجة، وقبل أن يختلُّ
توازني عدتُ مسرعًا لأمسك بمقبضي الدراجة. أشرقت

الشمس لتنشر أشعتها الدافئة، فتضيفُ إطلالةً مشرقةً على الحقول، حيثُ بدت سنابلُ الذرة الصفراء تشع كالذهب.

كانت السماء حينها صافية إلا من سحابةٍ بيضاء بقيت تتبعني، حتى وصلتُ بعد زمنٍ غير طويلٍ إلى الطريق المؤدي إلى جبل العروس. حيث ضجَّ السوق بالبائعين في صبيحة يوم الخميس. ارتصت مجموعة من الفتيات الصغيرات⁴ بملابسهنَّ التقليدية، زُننٌ⁵ سوداء بنقوشٍ حمراء، زِيَّنت كلُّ منهنَّ رأسها بتاجٍ من المشاقر⁶ ليبدنَ كباكات زهرٍ متنقلة، هبطنَّ من أعلى الجبل بسلالٍ من الثمار الطازجة.

إحداهنَّ كانت تنظرُ إلي بخجلٍ من بعيد، اتجهتُ نحوها، وقبل أن أسألها عن ثمنِ ثمار الفرسك⁷ التي تحملها، ابتسمت لي فتننتُ بها، فنسيْتُ ما أريد. أطلتُ النظرَ في وجهها الأبيض ووجنتيها الرُّمانتين، وشفتيها التي بدت كحَبَّتِي عنبٍ أحمر،

4. كناية لجبل صبر

5. مفردها زُنة، ثوب تقليدي لفتيات الجبل.

6. نبتة المشارق، حيث تمشقر بها نساء الجبل مع زهور الريحان والرنجس.

7. الخوخ اليمني.

اما عيناها فقد اتسعتا لتحويا جمال العالم بأسره بسوادهما
الحالك، وجديلتها التي تدلّت من أسفل طرحة رأسها وقد
زُينت بالمشاقر.
بدت لي وكأنها خرجت من قصص والدتي التي كانت ترويها
لنا كل مساء.
بعد لحظات امتدت يدها نحوي بكيس ممتلئ من ثمار
الفرسك، اخذته عنها مُغرماً وقد فاض الحب في قلبي من
أول نظرة.
- قالت: ما أسمك؟
- قلت متلعثماً: يعقوب.. وأنت؟
صمتت، حدقتُ بها متسائلاً كمن ينتظر إجابة، إلا أنني
تداركت الأمر سريعاً، أدخلتُ يدي في جيبي ومددتُ إليها
بالنقود.
لتقول لي بصوتٍ شجي:
- خُذه لك.

دوى صوت حرفها في أذني كالنغم. انثنت بخطواتها برشاقة
إلى الخلف، دون أن يتوقف نحر ابتسامتها عن التدفق. وهي
تعلو بُهدها نحوي ثم تخفضه بدلال، شيئاً فشيئاً حتى
اضمحلت تماماً كغيمة بيضاء.

تسمرتُ في مكاني، هبَّ النسيم يحركُ أطراف ورق النقود
في يدي التي ظلت ممتدة في الهواء.

مرت هنية صمتٍ سكت فيها كل شيء إلا قلبي الذي
استمر طويلاً في الخفقان. وما جفَّ ينبوع حُبها الجارِ يوماً
من هذا القلب، بل ظل متدفقاً حتى النهاية.

البداية..

اليمامة البيضاء..

ضجَّ الدار بصوت ضراخها الباكي وهي تعاني من الالام
المخاض، ومن بين صرخاتها تلك كانت تردد قائلةً:
(يا الله). من داخل الحجرة التي ظل بابها مواربًا، وانسدلت
الستارة الزرقاء امامه لحجب رؤية من في الداخل.

ارتجف قلبي، وضعتُ يدي على أذني كي لا أسمع الصراخ.
لحظة صمتٍ سرت حتى تبعها صوت بكاء الوليد.

عقد الرجل الذي يجلسُ أمامي حاجبيه ثم انتصب واقفًا، مرر
نظرة خاطفة على وجهي الخائف وأنا أمسحُ خدي من أثر
الدموع.

همَّ بالذهاب، لكن خروج الجدة من وراء الستارة المنسدلة
أوقفه، اقبلت بعينين دامعتين وابتسامةٍ خافته، تحمل بيديها
الوليد وتمشي به نحو الرجل بخطواتٍ بطيئة تتناسب مع سنّها
وجسدها الهزيل.

وما إن امتثلت أمامه حتى أشرق وجهها. صار يحدق
بالمولود بصمت.

للحظة، حُيِّلَ إِلَيَّ بأنه يخفي خلف شاربه وذقنه الكثيف
شبح ابتسامة، ولكن سرعان ما تجهم وجهه واستدار نحو
الباب الحديدي.

تاركا إياها خلفَ ظهرة، ثم رحل دون أن ينبس ببنت شفة.
تسمرت الحجة للحظات بعد خروجه. وقفتُ أحدق بها
بعينين وجلتين، وسرعان ما انتبهت لي، ابتسمت ثم اشارت
بأن أتبعها،

راحت تجر خطواتها متجهةً نحو مقدمة الصالة، جلستُ
متربعةً على الأرض، والمولود في احضانها.

اقتربتُ منها مندهشًا وما إن وقعت عيني على المولود حتى
اتسعت مقلتي ورُسمت على شفتي ابتسامة عذبة.

أركضُ في حقولِ قرينتنا، وصفية تركض خلفي، تقفز على
عنقي ثم نقع على الأرض سوياً ونضحك.
وبعد ان ننتهي من اللعب، نركضُ الى منزلنا حيث تعدُّ لنا
امي الطعام الذي نحب، بنتُ الصحن⁸، أكثر المخبوزات
التي نحبها، نتناولها بشراهة، بينما تنظر لنا جدتنا وتبتسم.
وفي المساء نشربُ الحليب الدافئ، ونلوذ إلى حجرها لتروي
لنا القصص.

تبدأ حديثها:

- "بكان ياما كان في قديم الزمان"، بينما تداعبُ صفائر
صفية بأناملها، تمرر لي قبلة خاطفة على وجنتي، فتضحك
صفية وأخجل أنا.

ثم تسترسل سرد حكايتها، تبقى مُنصتين لها وما إن تنتهي
حتى نطلب حكاية أخرى.
لكنها تقاطعنا بحُب.

نقطبُ حاجبينَا وغطُ شفتينَا معترضين.
فتبتسم مصرّة.

8. من المخبوزات اليمنية.

يعبسُ وجهه صفية فتقول:

- "سأشكوكُ إلى جدتي"،

فتنظر نحو الجدة التي تجلسُ على سريرها غارقة في الحديث
مع نفسها كالعادة. فتنفجر ضاحكة، ونشاركها الضحك
وتنتطوي تلك الليلة على صدى ضحكاتنا التي دوت عاليًا.
الطريف حقًا، بأن الجدة كلما رأتنا نضحك، ضحكت معنا
دون أن تدري ما القصة.! هكذا نحنُ عائلة واحدة يملأها
الحب، ويكسوها الود.

وفي الصباح، أستيقظُ فجرًا على صياح الديك. أغسلُ
وجهي متوضأً، وأركضُ نحو مسجد قريتنا لصلاة الفجر. مذ
السابعة من عمري لم أترك فرضًا واحد يضيع مني سهوًا،
مُطَبِّقًا لإرشاداتِ أُمِّي ونصائحها.

لم أكن فتى كسولًا على الإطلاق، كنتُ سريعًا كالسهم
حين ينطلقُ من قوسه، أرى الأغنام وأجني محصول ما
زرعناه، وأعود محمّلًا اليدين بخيرات أرضنا.

يبتسم وجهي مُشرقاً حين تستقبلني صفية فرحة، وتدثرني
أُمي بدعواتها من برد الحياة وصعقيها، بنظراتٍ يملأها الحبُّ
والرضا.

ماتت جدتي ذاتَ نهارٍ غائم، وحين دفناها أشرعت السماء
تشاركنا البكاء، تهطلُ دموع والدتي بصمت. فتقترب منها
صفية بوجه يكسوه الحزن تمسحُ أثر الدموع من وجنتيها، ثم
تتكور بحضنها مواسيةً لها.

كضمادة بلسميه تضعها على جرحك فيطيب، هكذا
كانت صفية في حياتنا بلسماً للجراح. أُمعنُ النظر في عينيَّ
أُمي الحزبتين لفراقِ جدتي، متذكراً عينيَّ جدتي يوم فراقِ
ولدها الذي رحل عنا بعيداً، دون أن يعود لرؤيتنا مرة ثانية.

ما زلتُ أذكرُ نحيب والدتي حينها لرحيله، بينما كانت
تذرف جدتي دموعها صامتة.

أما أنا فكنتُ أخفي شبح ابتسامَةٍ خافتة. وقد إنزاح ثقل
وجوده عن عاتقي.

لم أبدي لهما شعور الراحة الذي عمّ في صدري مذ لحظة
غيابه.

إلا أن حزنهما كان دوماً ما ينقص فرحتي. على عكسهما
تماماً لم أشعر قط بصلّة رحمٍ تجمعني بذلك الرجل. كيف لا
وقد كان مثله كمثّل المارد لا يتوقف أبداً عن إحداث
المصائب.

ولسنواتٍ طويلة حملتُ في داخلي عتباً لم أبخ به يوماً لأمي
متعجباً منها. متسائلاً أُمثّل هذا الرجل يُحب؟ بل وتُدرِف
الدموع من خلفه ويُشتاق إليه!

تشتعلُ النيرانُ في جوفي غضبٌ، كلما زاولتني ذكرى أُنيتها
تحتُ قدميه. وقد بدت كدجاجةٍ تُتَف ريشها، تتوسل إليه
أن يقف عن سنّ سكين ذبحها. ترجوه الرحمة والعطف.
ولكن تتوسل من؟!!

كان رجلاً يحملُ قلباً من حجر. لم يتأثر بدموعها الجارفة،
بتوسلاتها، وتنهداتها الطويلة، ولا بسيل قبلاقتها لقدميه ويديه
التي لا تتوقف عن ضربها وركلها.

لم يوقفه ذلك المساء إلا مجيء جدتي من خلفه، وعلى غفلة منه ضربت عكازتها على رأسه.

كنتُ أرتعد خوفاً حينها، متبوّلاً على نفسي، متسمرّاً في إحدى الزوايا. لم تفارقني تلك الذكرى على صِغر سني، بل ضلت تنخرُ بذاكرتي لسنوات.

ليرحل عنا أخيراً وترحلُ معه غمائم البؤس. إلا إنها من قلب أُمي لم ترحل، بل ضلت تتكبد في داخلها لتهطل بؤساً ومراره.

وكلما مررتُ بها رأيتها باكية. تنظرُ لي فتمسح مدامعها وتبتسم. ثم تحيطني بذراعيها مقبلةً إياي، ولكني كنتُ سريعاً ما ألوذ هرباً منها، متجه نحو صفيّة مداعباً لخديها بينما تبقى بين ذراعي جدتي.

وهكذا عاشت أُمي غارقة في حزنها لسنوات حتى تشفى. وكنتُ لا أدري مما تُعاني؟ وقد رحل معذبها ومشقّيقها لتبيتَ في فراشها سالمةً دون ضرب.

إلا أنه ما يزال يُعذِّبها هذا الرجل حتى في غيابه، يُطعمها
زقوم حبه اللعين. الذي تشعب في قلبها مفسدًا فيه. ومع
مرور الوقت اجتثينا أنا وصفية منه ما استطعنا، إلا أن
مازالت بعضًا من آثار اقتلاعه باقية في قلبها كالندوب.
أنظرُ إلى جدتي المريضة بالزهايمر وقد غُطبت ذاكرتها أخيرًا،
وتتوقف عن رحلة البحث عنه متجولاً بين الأبواب حتى
اهتدت ذات يوم سائلة عنه بين رفاق السوء من أمثاله ممن
يرتادون منازل البغاء، وقد زَفَوْا لها خبر رحيله مع إحدى
عاهرات الدار. لتأتي منتحبة واضعةً كفها على رأسها طيلة
نهار كامل.
ولاذّت أُمِّي بحزنها خلف الجدران وقد تجاوز صوتُ نشيجها
الأبواب المغلقة. لتصحوا جدتي في اليوم التالي متجنبة
الحديث عنه تمامًا، ظننتها فترة وجيزة إلا أنها استمرت
لأعوام.
حقًا كانت أيام عصبية لا تنسى، من حُسن حظ صافية
بأنها لم تشهد ذلك. فقد كان عمرها آنذاك مجرد أيام.

حتى أني في ذات نهار غائم كنتُ أخاطب به صفيّة مشفقاً
على حالِ أُمّي. أنظرُ نحو جدتي المصابة بالزهايمر، وقد
اشتبهتُ حقاً لو أن يباعَ بمثل مرضها في عُلب كنتُ يقيناً
أشترتُها لها، شريطةً أن يمَسَّ مفعولُ قلبها لا ذاكرتها.

لتجيني صفيّة على الفور بأن السرُّ يكمنُ بالتعاني لا
بالنسيان.

فتحت عينيها جدتي من غفوةٍ في ذاتِ ظهيرة على طرق
الباب. تركضُ مهرولةً من فراشها بقلب مضطرب.

وما إن سَحَبْتُ مزلاج الباب الحديدي، حتى أنفجر الباب
لأبدو أمامها. حينها كنتُ عائداً لتو من مشوارٍ بعيد..

لا أزالُ مرهقاً إلا أني أحملُ دهشة العالم في قلبي! مُحملاً
اليدين بثمارِ (الفرسك). فتأريخ اليوم له ذكرى طيبة في
نفسي. إنه يضم أعظم حدثين صارا في حياتي كلها، ميلادُ
صفيّة، ورحيل مصباح. أو مثلما اسميته دوماً بمعذب أُمّي
وهاجرها.

وما علمتُ بعد ذلك بسنوات بأن الحياة ستهديني في
التأريخ نفسه حدث آخر كالمعجزة. رؤية فتاة تنافس
الصباح بنورها. مذ ابتسمت لي حتى أشرقت شمس قلبي.
نظرتُ إلى جدتي المبهوتة حينَ أبقَت الباب مفتوحًا على
مصراعيه، تحدُّقُ بي ذاهلة. وكأنها تراني للمرة الأولى مذ
سنين، تسمرتُ مندهشًا اراقبها وأقول في سرِّي:

- ما بال جدتي؟

قليلاً حتى تغيرت ملامحها إلى سرورٍ مفاجئ، مستبشرةً
بقدومي، طفرت من عينيها الغائرتين دمعة فرح. بدى الأمر
مشوشًا بنسبة لي. أخيراً أنفغر فاهَا مناديه باسمه:

- مصباح!

كانت المرة الأولى التي تلفظُ باسم ولدها العاق مذ سنوات.
ليصُاب قلبي بالبهتة وأشعرُ بالرعدة. وكل ما بداخلي من
سلام راح ينهار دفعة واحدة، حتى أُنِي شعرتُ بالإعياء وكادَ
يغمى علي.

ولكني تمسكتُ عنوةً رَسَنَ قلبي الواجف، أدِرتُ وجهي إلى
الخلف وقد خَيَّلَ إليّ لبرهة بأنه خلفي. من حسن الحظ لم
يكن كذلك. هدئ قليلاً قلبي من روعته، حينَ علمتُ بأني
المقصود! ومنذ ذلك الحين ضلتُ مستمرةً بمناداتي باسمه،
وكلما جاءت متحدثة في سيرتي قالت مصباح جاء، مصباح
ذهب، مصباح فعل، مصباح ترك.. ليلغى اسمي تمامًا من
قاموس مفرداتها.

هي تعلم تمامًا بأني لستُ هو. إلا أنها تستمر بالصاق اسمه
بي.

وكنْتُ احتملُ ذلك على مضض، ولكني أعود حامدًا لله في
كل مرة استعرض فيها تلك الحادثة، متخيلاً في ذلك النهار
عودته بالفعل. فيهدأ كل ما بي من جأش وأعودُ متزنًا.

وكنْتُ كلما طرق البؤس بابي أو حاولت التعاسة أن تداهم
داري، ألوذ هاربًا نحو حجرة هذا الحب الندي، أغلقُ على
نفسي أبوابه بأحكام مؤصدة.

أبقى فيه مستأنساً بوحدي، هائماً. أشتُم لريح زهور الحب
وهي تتفتق في قلبي. متأملاً ينبوعه الجاري وهو يروي داخلي
القاحل. متمنياً لو يُذهب ظمأ سنين.

حتى أني ذات مساءٍ وقعتُ فريسة عيني صفية، اصطادتني
بنظراتها حينما رأني على غفلة، مغمضُ العينين هائماً في
ذبذبات هذا الحب مبتسماً لضبابه البعيد.

اقتربت ترفع إحدى حاجبيها عن الآخر، سرعان ما انتبهتُ
لها، فابتسمتُ خجلاً. إلا أنها بقت تحدق بي وهي ترمُ
شفتيها، لحظات حتى استدارت خارجاً وهي تضحك
مقهقه بأعلى صوتها.

عشتُ بخصلٍ شعري متأففا وصرختُ:

- لقد كشفت سري! إلا أني سرعان ما هدأت: أنها صفية
وحركاتها المعتادة.

وقد كانت صفية من أولئك الناس الذين يجمعون بين
نقيض الطبع. فتراها هادئة كمياء بركة ساكنة. إلا أنها
تصبحُ كأمواج البحر حين تهيج. وكانت هشة كرفافة ثلج،

وتارة تراها صلبة كالحديد. كما أنها تملك ملامح ساذجة،
إلا أن عقلها حكيم. وبهذا كله، تفردت شخصيتها فما
كانت تشبه أحد.

أنظر إليها متفرسًا في ملامحها البريئة، وجهها المستدير،
عينها العسليتان، وشعرها الاعمق وقد تموجت خصلاته،
لتعطيها مظهرًا مرحًا. لازالت صغيرة حلوتي، إلا أنها تُبرع في
اقتلاع أشجار البؤس من هذا الدار، وتشرق شمس السعادة
فيها من بين ثناياها الضاحكة.

كانت دومًا تُضحك أُمي بحديثها. أُمي التي ضلت لسنوات
حبيسة صندوق أسود، تَلْعَقُهَا أفعى حبه السام. للتححرر
أخيرًا من هذا الوبال. ولكن مثلما يقولون لا شيء بدون
ثمن.

فقد نُحِرَ الحزن لسنوات في قلبها، حتى اصابها الوهن والتعب.
فلم تكن مريضة قلب فقط، بل كانت تبصق دمًا لأصابتها
بالسل أيضًا. ضلت لأيام لا تأكل شيء حتى خارت قواها
ووقعت على الأرض، وحين سعفناها علمنا بهذا كله.

كانت تخفي عنا ألامها، إلا أنه كان يظهر مهما حاولت،
فليس كل الالام سواء. هناك ألم تستطيع أن تخفيه، وآخر
يوشي بك.

ذات نهار أصابتها نوبة سعال حادة، أتذكر جيداً ارتعاده
أوصالي حين رأيت بقع الدم تُلطخ منديلها. أسرعْتُ
بإسعافها، بينما بقيت صافية تبكي في الدار.

أنظر لأمي وهي تنُ متألّمة. حيثُ تفشى المرض متطوراً في
جسدها الضعيف. ينعصر قلبي كلما سعلت، وأرتعد خوفاً
من أن يحدث لها مكروه، وأي مكروه لم يصبها بعد؟ سوى
الموت وحدة.

تردد أُمي دائماً بأن الموت راحة. تُغزر من دموع عينيها
كلما سمعت عن موت أحد ما تعرفه،

ثم تجيب مواسيةً:

- لقد أرتاح أخيراً

وهذا ما حدث نصًّا في موت جدتي، تبكي صامتةً ثم
تواسي نفسها بالجملة ذاتها.

أرتعد قلبي فرعًا حينها، وتساقطت الدموع من عيني مخافة
أن تلحق بجدتي. فرؤيتها للموت كراحة تفيض الحزن في
قلبي، أثقلَ كاهلي عجزها اللعين، حينَ أمسى الموتُ محبوبها
السري الذي تشتهيهِ، وملاذها الآمن الذي ترجو أن تتصير
إليه. تأخذني الحسرة كأنما حزني.

ألستُ أنا وصفية نشكلُ سببًا كافيًا لأن تتمسك بالحياة
لأجلنا. أليست صفية بحد ذاتها صمامَ حياةٍ متدفق
بسعاداتٍ لا متناهية.

تأخذني الدهشة كلما نظرتُ إلى صفية أنسى ببهجتها
أحزاني. ألا تنظر هي إليها مثلما أنظر أنا. إلى شيء جميل
جدًّا، ورقيقٍ جدًّا، ويشبها جدًّا.

إلى تلك المعجزة الصغيرة، المتفردة بجمال روحٍ خاص كُوت
بداخلها صُنعت بين أحشائها.

ألا يكفي كل هذا بأن تتمسك بتلابيب الحياة، فإن لم يكن
من أجل نفسها، فمن أجلنا إذًا.

أنظرُ إليها فلا أجد في عينيها سوى حبيها المشتهى، بطلها
المنتظر. وقد أصبح الموت محلّصها الأبديّ، تنتظره برغبةٍ
فاقت رغباتها بمعذبها المهاجر.

أما أنا فما كنتُ أراه سوى لصّ أحباب. يسرع بأخذ من
تحبهم، أولئك الطيبين جدًّا، الحبيين جدا على قلبك. تارًّا
لك بؤس قومٍ تشقى بوجودهم.

وها أنا ذا أنظر للموت وقد صار محلّقًا فوق رأس أُمي
يزفرُّ بأجنحته ينتظر بفارغ الصبر لحظة اعتناقه لها..

ألا أُنّي استمر بمناجاة الله أدعوه ليل نهار بأن ينفخ في روحها
الحياة. ناهيك عن هذا الجسد المتعب الذي تمتلكه، روحها
البائسة كانت أحوج بأن تحيا.

وكنْتُ أحمل في داخلي شعورًا بالغرابة متسائلًا ما بال أُمي،
لماذا تصرُّ على تعاستها متلذذة بأحزانها كل هذا التلذذ.

وقد أصبحت في عين نفسها مجرمةً، تستحق عقاب المعاناة
اللعين الذي طوقت به نفسها لسنوات.

وددتُ اخبارها بأن ليس هنالك أقطع من أن ينتقم المرء من
نفسه لأجل لا شيء.

ففي حين غياب معذبها، صارت هي من تحل بدلاً عنه.
تمارس العذاب نفسه بأسلوبٍ آخر. تتفننُ بجلد ذاتها وتحطيم
معنوياتها، لتستمر لاهثة تركض في العجلة الدوارة نفسها،
دون أن تصل لأي مكان، سوى أن تتمدد مرهقة على
فراش الموت. ضحية قدمت نفسها قربان للألم.

— الموت، الموت وحده من سيحررني.

همهمتُ بهذه الكلمات لتتطلق الحروف من ثغرها كسيل
رصاصٍ مذاب ينصهرُ به قلبي، اقتربتُ منها معاتبًا للمرة
الأولى.

انفجرت عيني بينوع دمع ساخن، وبصوتٍ أجش صُرت
أصرخُ مضطربًا، وقد تطاير رذاذ فمي في الهواء، لتقع بعض
من زخاته على وجهها.

أشتعل قلبي بغضبٍ ملجوم مذ سنين، وانسلختُ فجأةً من
ذاتي الرحيمة، موجةً لها كلمات أليمه، حينَ أصبحتُ
مصباح أمامها بشحمه ولحمه، اقتربتُ من وجهها المكدود،
مُحظ العينين، تناظرني بوجل:

- أصحي يا امرأة، عذبنا الله بك في الدنيا، وسيعذبك الله
بنا في الآخرة. أفيقي من هذا الحزن اللعين، ومن عشقٍ دفين
لشيطان مارد.

اضفت ناغمًا عليها:

- جميع الأسقام حُلِق لها دواء، إلا الروح السقيمة علاجها
يكنم فيكِ.

قلت هذا وأنا أشير بسبابتي نحوها، متأملًا لوجهها المبهوت.

لأُضِيفَ أخيراً:

- أَصْحِي مِنْ سَبَاتِكِ، أَيْتَهَا الْغَافِلَةُ!

وَاسْتَدْرْتُ ذَاهِبًا، لَمَحْتُ حِينَهَا صَفِيَّةً مِلْتَصِّقَةً بِإِحْدَى زَوَايَا
الْحَجَرَةِ تَرَاقِبُنِي بَعِينِينَ بَاكِتَيْنِ وَوَجْهَ شَاخِبٍ مُصْفَرٍّ.

أَسْرَعْتُ بِالْخُرُوجِ، مُجْهَشًا بِبِكَاءٍ مَرِيرٍ. سَارِيٌّ نَحْوَ الْكُوخِ
الطِينِيِّ، مَاضِيًا لَيْلَتِي تَحْتَ وَمُضَاتِ النُّجُومِ الَّتِي تَرَصَّعَتْ
مِثْلَ أَلْتَّةٍ فِي السَّمَاءِ.

وَكَانَتْ لَيْلَةٌ جَافَةٌ، شَدِيدَةُ الْبَرْدِ. أَمْطَرَتْهَا بِدَمْعٍ عَيْنِي
الْمُخْضَبِ بِمَزِيجٍ مِنْ مَشَاعِرٍ، فَكُنْتُ تَارَةً أَشْعُرُ بِالْحُزَنِ مِنْهَا
وَتَارَةً عَلَيْهَا.

وَكَانَ الْحَنْقُ مَسِيطَرًا عَلَيَّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. حَنْقُ سَنِينَ طَوِيلَةٍ
حَمَلْتُهُ فِي قَلْبِي صَامِتًا، لِأَنْفَجِرَ أَخِيرًا بِطَرِيقَةٍ بِشَعَةٍ.

وَلَا أَخْفِي بِأَنَّهُ قَدْ انْتَابَنِي شُعُورًا لِحُطْيًا بِالرَّاحَةِ لِكُونِي بَحْتُ
بِمَا أَكُنْهُ فِي نَفْسِي مِذَّ سِنَوَاتٍ إِلَّا أَنَّهُ سَرِيعًا مَا تَبَخَّرَ.

ليصاب قلبي ليلتها بالوهن. حين حل الندم ضيفاً ثقيلاً
عليه. إن أنيابه الطويلة الحادة ما إن تنغرز في لحمته الطرية،
لا تنفك عنه ابداً، حتى تنهشه نهشاً. وقد دَوَى صوت قلبي
ليلتها يئنُّ من الألم، أضغطُ يدي نحو صدري باكِياً، أتَحَسُّ
فجوة الفراغ التي تكمن هناك.

وأتلوى مستذكراً آلامها العميقة ورحلتها مع دربِ الشقاء
الطويلة. متخيلاً أمامي وجهها المكدود وما فاضت به
عينها من أسي.

حتى هُدن أخيراً جفن عيني المرهق لأغطُ بنوم عميق.

سطعت الشمس فوق رأسي، لتتجمع قطرات العرق في
جبيني المتعب. كنتُ منهمكاً في عملي، كلما ضربتُ
المعول على الأرض، تساقطت قطرات العرق على طينِ
أرضنا، لتروى تُربتها بعرق عجبيني المجتهد.

أرفع رأسي عالياً. اسافرُ بنظري متأملاً نحو الأفق الجبلي.
هَبَّ الهوائُ العليلُ يراقصُ خصلات شعري،

وضعتُ المعول جانبًا، متجهتُ نحو الحجرة الطينية، دفعتُ
بأبها الخشبي المهترئ، وتقدمتُ لداخل، انخبتُ لأخذ
القارورة البلاستيكية الملتفة بقطعة قماش قطني. كنتُ أفعل
ذلك عادةً كي تحتفظ ببرودتها. قمتُ بعبء الماء دفعة
واحدة حتى رويت. زفرتُ حامدًا الله ثم رميتُ بجسدي
المنهك على فراشٍ بال. فأنا مقيم في هذه الحجرة مذ ثلاث
ليال. بعدما أعلنتُ الخصام عن الدار وأهله.

جاءني صفية نهار اليوم التالي من تلك الليلة، تحمل لي
الزاد، وترجوني للعودة. إلا أنني أبيتُ ذلك وبقوة، قلتُ لها:
- لا شيء سيعديني،

متحاشيًا النظر في عينيها التي ترقق الدمع فيهما، وانسابت
دمعة يتيمة على خدها الندي. تمنيتُ احتضانها في تلك
اللحظة، والعودة سويًا إلى ملاذ أُمي.

ولكن شيئًا ما في نفسي قد أبقى، ليس تكبرًا ولا تجبرًا.
ولكن الحزن حين يشتد بقلبي صاحبه يورث فيه القناعة،
ولا يقنع الفتى أبدًا من حُضن والديه. إلا أنه العناد الذي

يُضمر الروح وينخر الفؤاد، لا يترك للسكينة موطئًا. وما
كنتُ أصيرُ على عنادي إلا لصورةٍ واحدة، أن تنجو أُمي
من وحشِ الظلام الذي يحاصرها. أليسَ علاج الصدمة
بالصدمة، فلتنصدمُ بفقداني إذاً وتصحو من غيبوبتها.
أكثر ما يؤرقني هو موتها تعيسة.

- حتى في آخر أيامها تنعّيه، أيستحق منها كل ذلك؟! إن
كان الموت سيأخذنا جميعًا على كل حال، فليأخذها
ضاحكةً إذًا!

قلتُ ذلك وهممتُ بأخذ المعول من جديد، متجاهلاً للجوع
الذي بدأ يقرصُ معدتي. وما حَابَ حدسي، حينَ سمعتُ
صوت صفية يردد أَسْمِي من بعيد. وقد أقبلت تسارعُ في
خطاها نحوي. بقيتُ متسمّرًا للحظات، لتظهر أُمي من
خلفها تلوّح بيديها والابتسامة تزينُ وجهها الجميل.

منذ زمن لم أراها مثل الآن، أنها تبتسم! ليست ابتسامة
بؤسٍ بل فرح. لتبدد مشاعري، كل ذلك العناد قد اختفى.

ورحلتُ أركض نحوهما والبهجة تملئ قلبي. حملتُ أمي بين
ذراعيّ ودرتُ بها لتفقهةً عاليًا.

كانت الدموع تنسكبُ من عينيّ. وأهمسُ لنفسي:

- لقد عادت أمي.. عادت!

بدت جميلة، ذات روح صافية، متألّفة جدًّا، في قلبي في
حياتي الكثيرة البائسة دونها. أحمدُ الله كثيرًا بعودتها، ليس
إلينا فحسب بل لنفسها أيضًا بعد سنوات طويلة من الغربة.
بدت تعانق ذاتها أخيرًا. بادلتني النظرات نفسها، والابتسامة
لا تفارق مُحيّاها الحسن.

افترشنا مائدتنا، كان الطعمُ لذيذًا، أرزٌ بدجاج وعصيدةٌ
بالمرق، أما سيّدةُ السفرة المفضلةُ لديّ فهي بنتُ الصحن.
أكلتُ كثيرًا حتى شبعت. حمدتُ الله، ثم بدأتُ اجاملُ أمي
ناكلًا بصفية:

- أميّرُ مذاقِ طبخكِ جيدًا، أكادُ أجزمُ من لذّته، بأن

صفية لم تساعدكِ حتى بتقطيع بصلة!

نظرت إلَيَّ صفية مندهشة وتمتمت قائلةً:

- ما الذي تقصده؟، ثم هَمَّتْ برمي المعلقة على وجهي
مازحةً، إلا أنها لم تفعل.

عدتُ مسترسلاً حديثي بذات النبرة المازحة:

- لا ينقصنا بعد هذا الطعام إلا أعواد قات⁹. ضربتني أُمِّي
سريعاً على رأسي، فضحكت صفية منتصرة. دمدمتُ قائلاً
بينما اتحسسُ رأسي:

- كنتُ أمزح فقط ما كل هذا.

جذبتني نحوها، أحاطت رأسي بيديها الحنونين وعانقتني،
اخالَت عليَّ بقبالاتٍ مليئةٍ بالدموع، مَسَحَتْ بها الغبارُ عن
قلبي. تسللت رائحتها بداخلي، شعرتُ حينها بأني عدتُ
إلى أُنْسِي ونفسي، وأحسستُ بالأمان بعد سنواتٍ طويلة
قضيتها خائفاً.

حقاً البيوتُ دونَ ال أمهاتِ كهوفٌ، والقلوبُ دونَ مقابر.

9. عشبة خضراء يقوم بمضغها أغلبية رجال الشعب اليمني

ومن فاتته حُبَّ أُمِّه فاتته الحُبُّ كله؛ وإن تجرَّع من الحُبِّ
حُبَّ ألف امرأة، فلن يرويه إلا ماء سُقياها.

تمددنا على الأرض، أحاطتنا أُمي بذراعيها، تماما كما
كانت تفعل حين كنا صغارًا. أتذكر وقتها كنتُ أنشغلُ
بعدَ النجوم، بينما كانت صفية تقفزُ من نجمةٍ إلى أخرى
بحفّةٍ ومرح. روت لي بحماسها الطفولي ما تتخيَّله، انفجرتُ
ضاحكًا. فاحمَرَّت وجنتاها غضبًا وأعلنت محاصمتي.

ابتسمتُ لذكرى الطفولة، حين هبَّت نسائمُ المساءِ تداعبُ
ذاكرتي.

نظرتُ إلى أُمي فوجدتها غارقةً في صمتٍ عميق، تنظرُ نحو
السَّمَاءِ بعينين مرهقتين، انسابت منهما دمعة يتيمة على
خدِّها، وهي تعلو بجفنها نحو السماء ثم تهبُّ به، قبل أن
تنطقَ بصوتٍ مبحوحٍ خافت.

تضاهي القمر الساطع جمالًا وبهاء. لم تكن ملاكٌ نزلَ من
السَّمَاءِ بل كانت أُمي!

مأخوذَينَ بجمالها، نُصغي إليها بصمتٍ مهيب. فمُنذُ زمنٍ لم
نُحطَى بجلِسةٍ كهذه، وكعادتها بدأت:

كان ياما كان، في سالفِ الأزمان... كما تقول الحكاية
والرواية، ننقلها عن أجداننا بلا تزييفٍ أو تحريف...
ثم تمضي بسرِّ حكايتها...

من بين كل حكايات أُمِّي لا تزال واحدةً منها ترن في
ذاكرتي، لم تبهتْ صورتها رغم مرور السنين...

كانت عن امرأة اليمامة، المرأة التي طوقها البؤس بأغلاله،
فلم تجد للخلاص سبيلاً من سجنِ الجوع الذي حُبست
فيه. أياّم عجاف مرّت عليها، كانت فيها الأرض قاحلةً
تماماً. ليس بوسعها سوى أن تواسي جنينها بإطعامه من
ثديها الجاف، يبكي وهي تبكي معه. تغمغمُ بصوتٍ باكي
لعله يسكت، حتى خبأَ صوته أخيراً وسكنتْ أطرافه. كان
جسده الهزيل قد أصفّرَ تماماً.

نَعْتُهُ بصمت دون نشيجٍ أو بكاء. ثم قَبَلْتُ قدميه
الصغيرتين، ووضعتُهُ جانبًا برفقٍ بالغ. بدت كجثةٍ هامدة،
تَجُرُّ جسدَها نحو النافذة المشرعة، حيث تطلُّ على السماء
الزرقاء، بسطت ذراعيها كحمامةٍ بيضاء ورَفرفتُ بأجنحتها
نحو البعيد...

شعرتُ حينها بأن الإمامة لم تَطِرْ بعيدًا، بل استقرت في روح
أُمِّي. أتذكر تمامًا حزنَها البالغ حين انتهت من سرد الحكاية،
والدموع التي انهمرت من عينيها بحرقَةٍ مكتومة. كانت صفية
يومها صغيرة تبكي دون أن تفهم، أما أنا فتركت في نفسي
أثرًا لا يُمحى.

كانت تلك خير أيامنا، سُعداء نحتفي بأمتنا، حتى خارت
قواها ذات ليلةٍ وسقطت.

- (ما من علاج)، هكذا أجمع أطباء البلدة.

لزمَت فراشها تناجي رَّبِّها، أسمعُها حينًا تتشهد، وحينًا ترتل
آياتٍ من القرآن.

وأدركنا بقيئًا بأنها أيامها الأخيرة بيننا، غير أننا ندعو ليلَ
نهار أن تتحسن. ومَرَّت تلك الأيام مرورًا قاسيًا.

عدتُ من الرّعي أَهْشُ أغنامي قبيل الظهر، ما إن بدت لي
دارنا حتى تجمّدتُ في مكاني، حين رأيت جمعا من النساء
تتقاطرن نحوه. ارتعد قلبي خوفاً حتى كاد يدوي، لولا أنني
تمسكتُ بلبجامة.

واصلتُ المسير بخطواتٍ ثقيلة، حتى دسْتُ عتبة الباب
الحديدي. رفعتُ بصري فإذا بعشرات العيون تحدّقُ بي،
عندها اسندتُ ظهري للجدار وقد تملكني خوفٌ غامر،
حين رأيتُ عيون جاراتنا باكيات.

أدركتُ بأن شيئاً ما قد حدث؛ أمراً ما لا أودّ تصديقه. ومن
شدة الارتياح غابَ سمعي فما عدتُ أستمع لشيء سوى
ضحيج دقات قلبي.

بدى كل شيء يدور حولي، فقدتُ توازني. حاولتُ أن
أصرخ ولكن صراخي تجمّد في صدري.

لولا صفية التي مَرَّقت السكون بسيلٍ من الصرخاتِ
المفرعة. أجهشتُ حينها بالبكاء، أجزر قدميَّ نحو مصدرِ
الصوت.

كانت الحجرة قد امتلأت بالنساء، وما إن رأوني حتى
تنحَّوا جانبًا، رأيتُ أُمِّي مستلقيةً على فراشِها، وصفية تنوخُ
تحت قدميها.

تجمَّد فكري لدقائق معدودة، فجأةً حيثُ ومضت في ذهني
ذكرى قديمة، شبيهة بما أراه الآن.

كانت أُمِّي يومها تنوخُ مهتاجة ويديها مُخَضَّبَتين بالدم، دم
صديقتها التي لفظت أنفاسها الأخيرة بين ذراعيَّ أُمِّي. كان
صُراخها شبيهًا بصراخ صفية الآن.

ارتعش قلبي وأرتجَّ جسدي، وأنا أنظر إلى أُمِّي بين يدي
صفية وقد أصبحت جثة هامدة.

كان المشهدُ أصعبُ من أن أحتمله، دارت الدنيا بي
وسقطتُ أرضًا مغشياً عليَّ.

تحولت أُمِّي هي أيضًا في ذلك النهار إلى يمامة، رفرفت
بجناحيها وطارَت بعيدًا عنا، تاركةً إيانا غارقين في حزنٍ
عظيم.

لم تكن صفيّة واعية لما يحدث، رغم صراخها المستمر في
ذلك اليوم.

كُفِنَتْ أُمِّي بملاءةٍ بيضاء نقية، كقلبها، وفاحت رائحة
العود والمسك تختلطُ بريح المشافر، تملأ الدار وجوفي الذي
فارغه الأمان.

اقتربتُ منها، قَبَلْتُ جبينها مودِّعًا، وتوسلتُ إليها أن
تستيقظ أو أن أستيقظُ أنا من هذا الكابوس. ولكن ذلك
لم يحدث، كان الفراق حقيقيًا.

بعينين مُضْنِيتَيْنِ تأملتُ وجهها البهّي وهي ترقُدُ في سلام،
تزيّنُ ملامحها ابتسامة هادئة.
ارتاحت أخيرًا..

لاذت في حُفرتها، وفَرَشنا عليها التراب، مع كل حَفنة
كنتُ أَرُدُّ مُنتَحِبًا.

— آه يا تُراب... قلبي بين أحضانك يا تُراب.. لا تَشْقَى
عليه يا تُراب.

وحال الموت بيني وبين أُمي، فما عاد لجسدها من بقاء، أما
روحها فما زالت تسكنني، فما للمتحابين من فراق.

أَضَعُ يدي على صدري مُهَدِّئًا خَفَقانَه، كمن يَضَعُ ضِمادةً
على جرحٍ غائرٍ لن تَبْرُوهُ الأيام. ثمة حزنٌ عميق يسكنني، لن
تردِّمه سَعادات العالم.

جلستُ على الأرض، في فناء الدار الخارجي، حيث الجزء
الترابي، فوق لحافٍ خزفي فُرَش تحت أقدامنا. كانت الشمس
قد آوت إلى المغيب، وصوت القرآن الكريم يعلو من داخل
منزلنا، يتهدى صداؤه في الأرجاء، فيقع أثره كبلسمٍ على
جراحٍ مفتوحة. يتفرقُ الدمعُ في عيني؛ روحها تحومُ بيننا،
تلفُ المكان، أراها في كل زاوية. حين خرجتُ من الدار
لتتجاوز عتبة الباب الحديدي، التفتت إليّ مبتسمةً،

والضياءُ يشعّ من وجهها الجميل، وعيناها تبدوان كأنهما
تومضان كنجمتين في ليلٍ صيفي.

تبعثُها بنظري، ثم بنهضي، وهي تمضي بعيداً، بعيداً، حتى
غدا جسدها شفافاً، أثيراً يعلو رويداً نحو السماء حتى
اختفى.

عدتُ إلى مكاني، أحملُ في رأسي أصواتُ أمي، بكاؤها،
ضحكاتها، حكاياتها، فانهمرت عيناها سيلاً من الدموع.
ربتُ على كتفي الرجل الجالسُ إلى جانبي الأيمن صامتاً،
بينما همس الآخر:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت روحي تطوفُ في عوالم أُخرى أركضُ نحو مجهولٍ لا
أعرفه، وسطَ سديمٍ يغمري من كل جانب.
ضحكاتٌ عذبة تتردّدُ في مسمعي، وشبحُ ملاءةٍ بيضاء
يرفرفُ في الأفق يقودني نحو جبلٍ شاهقٍ أخضر يتقدمني في
البعيد.

استيقظتُ فرعًا على صوتِ أذانِ الفجرِ كانت الليلة الأولى
لفراقِها. صحوْتُ فارغَ الفؤادِ، مثقلَ الكاهلِ، أجُرُّ جسدي
المبْهَك. لم أَلْحَظْ فنجانَ الشاي حين ركلتهُ بقدمي، إلا
بعدهما دوى صوتهُ في أرجاءِ الغرفة. حَظَفَ قلبي صخبهُ
المفاجئ. ثم هدأ حين رأيتُ صفيّة لم تستيقظ. حيث كانت
متكورة في سريرِ أُمِّي محتضنه لملابسِها، بعد ساعاتٍ طويلة
من النشيجِ غلبها النومُ أخيرًا.

فالنومُ يساعدُ المرءَ على الشفاءِ، إنه بمثابةُ هدنةٍ من الألمِ.
بعد الصلاة، جلسَ أُمَامِي شيخَ فريتنا، ربْتُ على كَتْفِي
برفقٍ، وأثنى بِصَلاحِ سيرةِ أُمِّي وقبولِ الله لها في جنته، إن
شاءَ الله. ظلَّ يواسيني، ينظرُ إلى وجهي المكدود كأنما يقرأُ
في ملامحي أنينُ روحي المتعبة وهي تتنُّ في صمت. ثم عاد
يحدثني عن نعيمِ الجنة، وعن حياة الأرواح في البرزخِ منعمين،
مطمئنين.

كانت في كلماتِهِ حلاوة تُسكن لوعة القلبِ، ودفءٌ يُرطب
جفافَ الحزن.

ومع الشروق خرجتُ من المسجد مودعًا للشيخ. أجزُ
جسدي المنهك نحو دارنا، قصدتُ حجرة أُمِّي التي تبقى
فيها صفة عادية، إلا أنني لم أجدها، قلقْتُ فصرختُ بأعلى
صوت:

- صفة، أين أنتِ؟

وهرعتُ مسرعًا نحو الخارج متجهًا نحو الزريبة، فقد كانت
من عاداتها كلما حزنتُ أو غضبتُ من أحد فينا، تلوذُ إليها
لتبقى بين الخراف لساعاتٍ تُفضي لهم ما بداخلها. وبالفعل
وجدتها هناك، محشورة بينهم، وفي احضانها يبقى ضأنٌ
صغير. نظرتُ إليها قريرَ العين، ومضيتُ نحوها، جثوتُ على
ركبتي، مسحتُ دموعها بإبهام يدي، وأحتطها بينَ ذراعيَّ
مواسيًا.

ومن تلك اللحظة لم أقوى على تركِ صفة لوحدها. لجأت
إلى الجدة خديجة لتبقى بجانبها في غيابي، لم تردني خائبًا، بل
كانت ممتنة لبقائها قرب صفة. فالجدة خديجة لم تكن كأَيِّ
أحد، إنها صديقةٌ جدتي تحملُ من ريحها وطيبتها،

لقد كانت فردًا من عائلتنا. كلما رأت صفية فاضت عينيها
الغائرتين بالدمع، تجذبها نحو صدرها وتتنهد. تتذكر فتاتها
الشابة التي غادرت الدنيا بفجعةٍ زلزلت أركان القرية حينها.
مرَّ زمن على ذلك ولكن من ينسى؟ تلك الفتاة التي أنهت
حياتها بثلاث طعناتٍ بالخنجر!

هزّت الحادثة قلوب الناس، لا عائلتها فحسب. ما زال
صُراخ أمي يرنُّ في رأسي صبيحة ذلك النهار المشؤوم، وقد
جاوز صدهاء حدود القرية، وهي تبكي منتحبه، تضمُّ جثة
صديقتها إلى صدرها، وقد تلوّح جسدها بالدم. كم كانت
الصعاب جزلةً في حياة أمي آنذاك.

حيثُ بدأتُ الحكاية.. (لا تأخذها، أيها الذئب) ..

مرت الأيام متسارعة، لتعبها الأسابيع، فالأشهر. حتى جاء ذلك النهار الذي تجلت فيه أحزاني. عدتُ للتو من الرعي أسوقُ أغنامي نحو الدار، توقفتُ فجأة، أنظرُ نحو السيّارة الراسية أمام دارنا متعجبًا، وقد كانت تحملُ حقائبَ كثيرة. ساورتني حينها مشاعرٌ غريبة حاولتُ أن أستطردّها مسرعًا الخطى نحو الباب، وقبل أن أدلف للداخل صعقتُ، كانت الصدمة أكبر من أن تُحتمل. وهو يقفُ منتصبًا أمامي بشحمه ولحمه، مصباح هاجرٍ أُمي ومعذبها.

بُرودة سرت في أطرافي كلّها، اختلجت شفّتي، واصفرّ لوني. عصفت بي مشاعرُ الماضي وذكرياتُ الأمس. خطفتني خطفًا تلك المشاهد التي جاهدتُ طويلًا كي أحجبها عن ذاكرتي، ولكنها أثبتت لتجلى بوضوح هذا اليوم.

عودته متأخراً، يفوحُ الخمرُ من فمهِ النتن، صرَّاحُ والدتي في
الليالي القاتمة، وهي تتجرَّعُ مرارة حبه السام. ثم تخرج فجأة
من غرفتها وجسدها تغطيه الكدمات. تتدحرج قارورة
زجاجية على الأرض، وقبل أن ننتبه لها تؤخذ سريعاً لتكسر
على رأسها. وبكاؤها المستمر تحت قدميه.

استمرت تلك المشاهد القبيحة تومض سريعاً كشريط
مسجل أمام عيني، حتى انتهت بخروج جدتي من وراء
الستارة المنسدلة، تحملُ صفيحة بين يديها، يتفحصها بعينين
تخلو من أي مشاعر، يرمقني بعدها بنظرة حادة، ثم يلُوج في
غيابٍ طويل.

كل ذلك وكلاً منَّا ينظرُ في وجه الآخر بصمتٍ مهيب.
عدتُ إلى رشدي، فتراجعتُ خطوة إلى الخلف، وقبل أن
أنبس بكلمة واحدة.

جاءت امرأة من خلفه، أزاح لها جانباً لتظهر أمامي، مماثلة
لُ في حضورها الصادم.

كانت ترتدي عباءة سوداء مبهرجة، وأسدلت طرحتها على كتفها، ليظهر شعرها المسرح على هيئة كعكة.

شعرتُ بنغصة موجعة في صدري، وهو يتفحصني بعينيه النافذتين. بعد لحظاتٍ ثقيلة ارتسم شبحُ ابتسامة على وجه اللثيم، ثم أردف قائلاً بصوتٍ غليظ:

— لقد أصبحت يافعاً، يا يعقوب.!

لمعتُ عيناها دهشة، وفغرت شفتاها المطليتان بأحمر شفاه داكن اللون. قائلة:

— أنت يعقوب إذا؟ نظرتُ إليه واكملت: إنه نسخة منك يا مصباح...!

ظهر شبح ابتسامة على وجهه، بينما ظلَّت عيناها مرتكزتين نحوي. أضافت بمرحٍ مصطنع:

سررتُ بمعرفتك أيها الشاب، أسمى راوية، زوجة أهلك.

أحاطت ذراعهُ ثم اضافت بدليعٍ ماسخ:

— ألن ترحب بنا يا يعقوب؟

شعرتُ باشمئزاز واضح وهي تتحدث. رحتُ أفكر صامتًا:
هذا الوجه رأيته سابقًا، لكن أين؟ حينها خطرت على بالي
ذكرى قديمة، توسعت مقلتي.

ولسرعةً بديتها شعرتُ بذلك، رفعت أحدَ حاجبيها عن
الآخر، ولمعت عينها بلؤم وهي تقول:

- لقد تذكرتني، أليس كذلك؟!

أنهت حديثها ومررت غمزة صغيرة. همستُ في داخلي
مندهشًا:

- يا لوفاحتها، هل يعقل؟!

فقبل سنوات تعرض مصباح لَوَّعكة صحية، أثر الكحول
التي كان يدمنها، ليلزم فراشه طيلة شهرٍ كامل. أعكفت
أمي على رعايته ليلَ نهار، أما جدتي فلم تكف المسكينة
عن الذهاب والإياب إلى الصيدليات.

أتذكرُ ذلك الصباح جيدًا، حيث كان الوغد قد تحسن
قليلاً، طُرق باب دارنا،

هرعتُ سريعًا لفتحها ظنًا مني بأنها جدتي، ولكن لم تكن هي، كانت امرأة أخرى أكثر شبابًا وجمالًا. سألتها بدهشة طفلٍ من أنت؟

دنت مني وهمست:

- هل والدك في الداخل؟

أومأت لها برأسي موافقًا وسريعًا ما دلفتُ لداخل متجاهلةً تمامًا قدوم والدتي نحوها. حتى إنها لم تكلف نفسها عناء النظر إلى وجه أمي. تابعتُ خطواتها بثقة حتى حجرة نومه، دخلت وأغلقت الباب خلفها. كانت تعرفُ المنزل كما لو أنها أحد ساكنيه. لم تكن زيارتها الأولى على الإطلاق! أدركتُ ذلك جيدًا والدتي، لكنها لم تفعل شيء. اكتفت بسماع همهمة أصواتهما التي وصلت إلى آذاننا من وراء الباب. بعينين دامعتين، وقلبٌ اختلجته الحزن.

تجلى ماضيهما الأسودُ أمامي كوضوح الشمس. أحمرَّ وجهي غَضَبًا، وأنا أنظرُ إلى وجهيهما الذميين امامي.

لم أعد أحتمل، فصرختُ فيهما: يا للعار! أرحلوا من منزلنا
الآن، ارحلوا هيا!

قاطعني قدومُ صفية، جاء صوئُها مضطربًا وهي تقول:

- ماذا تفعل يا يعقوب؟ إنه أبانا، كُنْ ممتنًا يا أخي، لقد
عاد!

أصبتُ بالصدمة، فموقفها ما زادني إلا غضبًا. ما توقعْتُ
ذلك منها، وبحق جارف قلت لها:

- ما الذي تقولينه أيتها الحمقاء؟

زفرتُ على مضض وأضفتُ: صفية، أرجوكِ لا تفعلي
ذلك.

نظرتُ إليَّ متوسلةً، إلا أنني تجاهلها تمامًا.

عدتُ لأنظر نحوهما، كانا يبادلاني النظرات نفسها بامتعاض
أكبر. تجاهلتُ تلك الأخرى، واقتربتُ منه متحديًا، أهسُّ
إليه والشررُ يتطاير من عيني:

- ألم تتركنا لأجل هذه؟

قلتُها وأنا امرؤٌ إليه نظرةٌ يملؤها الاحتقار. أريد وجهه.

استرسلتُ:

فلتأخذ مُومسك ولترحل إذا،

أتبعتها بصرخةٍ عالية:

فلترحل من منزلنا الآن!

هُنا، صفعني بقوة على وجهي، لم أتردد لحظة، اندفعتُ
سريعًا ولكمتهُ على بطنه. اشتدَّ العراك بيننا، متجاهلين تمامًا
صراخ صفية وزوجته. حتى سقطتُ أرضًا، حاولتُ التملّص
من بين يديه التي طوقهما على عنقي، ولكن لم أستطيع،
كان قد أحكم بهما وثاقي، وللحظة حُيِّلَ إليَّ أنها لحظاتي
الأخيرة. لولا تدخل صفية السريع حين قامت بخنطه على
رأسه بعصا خشبية موضوعه جانبًا. أرخى يديه عن عنقي
وخرَّ أرضًا.

هرعت صفية نحوي، أحاطت رأسي بيديها وهمست قائلة:

- هل أنت بخير؟

أومأتُ لها موافقًا كان ما يزال صدري يصعدُ ويهبطُ،
وأوصالي ترتعش.

في تلكَ الأثناء هرعت زوجته إليه، تتحسسُ رأسه. رمقتني
بنظرة بغیضة. لم تكن الضربة قوية لذلك أفاق من فوره.
لم يلبث قليلًا حتى تبادلنا نظراتٍ غاضبة، كِدنا نستأنفُ
العراكَ ثانيةً.

لولا صُراخ صفيّة بنا وهي تجهشُ بالبكاء:

- ما لذي تفعلاه؟!!

صمتت قليلًا ثم قالت وهي تنظر إليه:

- رغم ضعف والدتي اتجاهك، ولكن صدقي لم تكن
لتسمح لك أن تضربَ ولدها أمامها مطلقًا.
ثم مالت بنظرها إليّ متوسلة:

- لماذا تفعل ذلك يا يعقوب؟ ألا تريد أن نعيش في سلام؟
مازال الحزن فينا طريًا يا أخي، تَرَفَق بحالي، فقلبي الضعيف لا
يقوى على فراق أحد. أنا سعيدة بوجودهما، فلتحاول أن تُسعد
من أجلي إذًا!

حُزْنَهَا أَطْفَى غَضَبُهُ حَيْثُ بَدَتْ مَلَامِحُهُ تَشِي بِالْانْكَسَارِ .
أَمَّا زَوْجَتُهُ تِلْكَ، فَلَمْ أَكُنْ أَبَالِي بِالْخِزْيِ الَّذِي طَقَى عَلَى
وَجْهِهَا آنَذَاكَ . تَأْثِيرُ كَلِمَاتِهَا كَانَ وَاضِحًا عَلَيْنَا . اقْتَرَبْتُ
مِنْهَا مُوَاسِيًا، وَدَاخِلِي يَعْبُجُ بِأَسْفِ الْبَالِغِ، أَحْطَتْهَا بَيْنَ ذِرَاعِي
صَامِتًا .

مَسَاءً، جَلَسْنَا حَوْلَ مَائِدَةِ الْعِشَاءِ، صَمْتُ مُطَبَقِ يَخِيمُ
الْمَكَانَ، سِوَى مَنْ قَعَقَعَةَ مَضْغٍ مَقْزُوزَةً تَصْدُرُ مِنْ فَمِ مُصْبَاحِ
وَزَوْجَتِهِ .

ظَلَّ نَظْرِي مُرْتَكِّزًا حَوْلَ طَبَقِ الطَّعَامِ الْمَقْدُمِ لِي، مُتَجَنِّبًا النَّظَرَ
إِلَيْهِمَا . كَانَ مَا بَدَاخِلِي ثَقِيلًا، لِدَرَجَةِ عَدَمِ اسْتَطَاعَتِي عَلَى
بَلْعِ لَقْمَةٍ وَاحِدَةٍ، بِالْكَادِ اسْتَطَعْتُ مَضْغَهَا عَلَى مَضْضٍ
لِتَبْقَى فِي الْمُنْتَصَفِ، وَبِصُعُوبَةٍ بِالْغَةِ هَبَطَتْ إِلَى الْأَسْفَلِ
لِتَسْتَقِرَّ كَالْجَمْرِ عَلَى مَعْدَتِي . أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّ الطَّعَامَ هُوَ
مَنْ يَأْكُلُنِي لَسْتُ مِنْ يَأْكُلُهُ .

الْجُلُوسُ حَوْلَ مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ، مَعَ أَشْخَاصٍ يَتَعَدَّى نَفُورُكَ لَهُمْ
مَسَاحَاتِ أَوْطَانٍ هُوَ الْجَحِيمُ بِأَسْرَةٍ . وَمَا كَانَ يَزِيدُ الْأَمْرَ
تَعْقِيدًا، الرِّضَى الَّذِي بَدَى وَاضِحًا عَلَى وَجْهِ صَفِيَّةٍ .

إنها لا تعلم مكر هذا الرجل، ولا تدرك حقًا حجم المعاناة التي ستلحق بنا من خلاله. إنه كالسُم الزُعاف، ما إن يستقر في بطنٍ سليمٍ حتى يكثر أسقامه، ولا يبرحه حتى يفتكُ به فتكٌ. ليتها تعلم بأن العلاج منه في البُعد فقط. فخسارة أُمي تكفيني بؤسًا ولا طاقة لي بتحملِ خساراتٍ غيرها.

القيثُ نظرةً خاطفةً نحوها، بعدما كنتُ أتَحاشى النظرَ إلى وجهيهما مذليل، إلا أنه سريعًا ما تكبد داخلي وشعرتُ بالضيق. تركتهم خلفي وأسرعْتُ نحو الخارج. حيثُ هبَّ الهوائُ العليلُ يحركُ ما بداخلي من غم، ويزيحُ عن صدري غمائمُ البؤس المتراكمة.

مرَّ بي طيفُ أُمي يبتسمُ لي، فاضت الدموع في عيني، كم اشتقتُ لها، بدت تلك اللحظات الخالية منها موحشة. كيفَ فعلتُ ذلك بها؟ كيف استطعت الجلوسُ معهما حول مائدةٍ واحدة؟ أن أتناسى حُزنها إلى تلك الدرجة؟

تَبَّأ لي، قلتُ ذلك بصوتٍ مسموعٍ ورحتُ اضربُ على
رأسي.

في حينٍ كنتُ شاهدَ عيانٍ على كل ما مرت به من عذاب
وَألم. أبعد كل ذلك سأصفح؟ سأنسى؟ سأنظر إلى جلادها
مبتسمًا؟

إن كان انضمامي إليهما في عشاءٍ واحدٍ يُعد خيانة
عظمى، كيف سيمضي العمر معهما أذا؟ هل سأظل أعاني
من وطأة هذا الشعور؟ أم أنه سيخفُ تركيزُهُ تدريجيًا حتى
يتلاشى بمرور الأيام؟ هل سأثور سخطًا كلما استحضرتُ
معاناة أُمي بالنظر إلى وجهيهما الذميين؟ أم سأصبح
معتادًا لمعايشة كل قبيح؟!

أطلقتُ زفيرًا طويلًا، وامتثلتُ جالسًا على المصطبة الإسمنتية.
أرخيْتُ عضلات جسدي وأسندتُ ظهري إلى جدار بيتنا.

حيثُ وصلني صوتهما متسللاً من فتحة النافذة المواربة،
ضغطتُ كلتا يديَّ على رأسي مُستَفْزًا. لا أخفي بأنها
اجتاحني رغبة جامحة في طردهما.

حتى أني امتثلتُ واقعًا لفعل ذلك، ولكني عدلتُ عن هذا في الحال. لأنني أدركُ يقينًا بأن هذا الرجل لن يغادرَ مطلقًا بعدَ الآن، مذ مجيئه وإلى الأبد، سيبقى ملتصقًا بنا. عدتُ لأُسندَ ظهري نحو الحائط الخشن، هدأت الأصوات حينها وعادَ الصمتُ ليلتلع كل شيء، إلا صوتُ رأسي الذي دوى ضجيجهُ عاليًا.

نظرتُ نحو السماء، المرصعة بنجوم تتلألأ كأنها فصوص كرسنالٍ متناثرة على رداءٍ مخمليٍّ أسود. عضضتُ شفتي متحسرًا لأيام الطفولة، حينَ كنتُ أنهمكُ في عدِّ النجوم حتى يغلبني النوم، أما الآن فأنا منهمكٌ بعدَّ الهموم التي تجاوزَ عددها نجوم السماء.

- يا لأيام الطفولة..

قلْتُ ذلك وزفرتُ مستاءً. وسرحتُ في الماضي أخاطبُ طيفهما متحسرًا:

- هل كان يستحق أن تدمرا نفسيكما من أجله؟ أتخسف على سنواتٍ غمرهما الضائعة لأجل شخصٍ رث!

وتمنيث حقًا في تلك اللحظة لو أنهما ما تزالان على قيد الحياة، كنت سأقول لهما ساخرًا: هل أستحق منكما كل ذلك الحزن؟ وقد ترككما خلفه، بعدما أذاقكما أصنافاً من الويلات، ليكون غيابهُ عنكما هو فقط هروبٍ مع مومس؟! كم أنكما لا تساويان قيمتها في قلبه!

كنت سأقول لهما هذا بالحرف الواحد. وبالوجه الخصوص إلى أمي. همستُ منفعلًا كما لو أنهما أمامي:

— يا لحيية الأمل فيكما، لا فيه.

قلت هذا وبصقتُ على الأرض!

حقًا لا أعلم كيف أستطاع هذا الرجل أن يدير ظهرة عنهما، أم حنون، وزوجة شابة جميلة ومخلصة. مع طفلين لم يحظيا بلمسةٍ حُبٍ من يده. في الحقيقة لو بدا العرض مغريًا إلى هذا الحد لحاولتُ أن أجده له عذرًا على الأقل، ولكن مع من؟ مع هذه!

أتذكرُ ضجيج سكان قرينتنا حين علموا بهذا الأمر.

وكيف أصبح الجميع يثرثر في سيرتهما ليل نهار. ولكن أن
يعودا سوياً فهذا لا يعقل. أي حد من الوقاحة بلغا حتى
يصالا إلى هذا الحد.

شعرت حينها بنعاسٍ يتخللني، ذلك النعاس الذي يمثل هدنةً
بين حربين: حربٌ مع نفسك وحربٌ مع الحياة.

وامثلتُ واقفاً كي أدلف للداخل، لكنني سريعاً ما عدلتُ
عن قصدي. كنتُ منهكاً جداً، حيران أين أذهب.

لو أنني اتسربُ لداخل متحاشي النظر إلى الجميع، دون
استثناء أحد، حتى صفيّة. ما كنتُ لأطيق النظرَ إليها في
ذلك الوقت. ثم أصبحو فجراً، ولا أعودُ حتى المساء.

إلا أنني عدلتُ عن ذلك أيضاً، فلا طاقة لي باستنشاق ذات
الهواء الملوّث بأنفاسهما العفنة!

قلتُ لنفسي أي دار لك يا يعقوب؟ كان هم تلك الليلة
عظيماً على كاهلي. لأني موقناً بأن كل شيء لن يعود أبداً
كما كان،

وبأن كل ما مضى لا يُعد شيئاً أبداً مما هو آتٍ، وبأن هذا
الرجل وزوجته لن ينفكا عنا حتى يُسلبانا كل راحة.

وكم تمنيتُ بأن هذا اليقين الذي أكنه مجرد أوهام. لكنهما
كانا كخابوري بلاءٍ في حياتنا!

وبينما أنا كذلك رأيتُ صفية مقبلةً إليّ، تحملُ بيديها غطاءً
صوفيّاً، مالت نحوي لتغطيني به. ثم نظرت إليّ بحنان:

— ألن تدلف لداخل؟

أومأت برأسي نافيةً. استنكرتُ ذلك وقالت:

— الوفاء الحقيقي الذي يجب أن يقدمه الأحياء لموتاهم هو
البرّ بمن يحبون، حتى وإن كان هذا ثقیل على كاهلهم.

ليصل إليّ معنى كلامها دافئاً قبل أن تضيف وهي تضع
يدها على كتفي وقد ومضت عينيها كنجمتين:

— عليك أن تصبر على وجوده حتى إذ كان في بقاءه مشقة
لك، إنه يحملٌ من ریح الأحاب يا أخي.

أزعجني ما قالت، أزعجت يدها عن كتفي برفق وقلت مُعقَّبًا:

- هل تدركين ما تقولين؟ هل هذا الرجل من ربح
الأحباب؟ إني لا أشتم في ريحه سوى نتن أحزانهما التي تفوح
من ذاكرتي كلما رأيته. نتوء جراحهما على يديه، إنه يرشح
بدماءٍ أُمي يا صفية، دموعها كانت غذائه وصراخها
تسليته، ثم إنها رضخت لأصناف من عذابات شتى جُرعت
بها على يديه، ليكافئها أخيرًا بهجرانٍ طويل، مع من؟ مع
هذه!

هذا ليس حبيبٌ أملك يا صفية، بل مُعذِّبها وهاجرها لا
تنسي ذلك أبدًا، لا تنسي! قلْتُ هذا وقد بدا الغضب بادئًا
على وجهي.

أجابت على الفور منفعلة وقد بدا صوتها مضطربًا:

- هذا ما أودُ أخبارك به، ما كان في تواجدته اليوم بيننا أمر
قد يسوئهما في شيء، حتى عودته مع هذه المرأة. صدقتي ما
كانت والدتي لتعترض عليه، بل كانت ستمرر كل هذا
مروورًا طيبًا. أنت تعلم بهذا أفضل مني.

صمتت لهنية، ثم عاودت الحديث بنبرة صوتٍ أكثر أنزائاً:

— فلا تظن بأن وفاءك إليهما سينتقاطع مع ما أريداه
لسنوات.

ترقرق الدمع في عينيها وهي تضيف:

— هذه رغبتهما فلنحققها لنغنم بهذا البرّ العظيم. ثم مهما
بلغت مساوئه سيظل هذا الرجل أبانا، شئنا أم أبينا، لا
شيء يغير حقيقة هذا الأمر.

فالتقبل يا أخي بأن الرجل الذي في الداخل هو أباك.. أباك
يا يعقوب. أليس من الرائع أن يكون للمرء أب؟!
انسابت دموع حارة على وجنتيها. أملتني روحها النقية. قلتُ
بصوت واهن:

— ليتني أملك قلباً بنقاء قلبك يا صفية، قلبٌ ضعيف
الذاكرة ينسى الإساءات. أما أنا يا عزيزتي، فيكتوي قلبي
بنار الإساءة لتصبح علامة، وكل علامة في قلبي هي إشارة
ترنُّ في رأسي كلما أوشك قلبي على النسيان.

لستُ حقوداً ولكني لا أعيد الخطأ مرتين. وأنتِ تخطئين
تماماً مثلما أخطأت والدتكِ في زمانها!

ثم اقتربتُ محدقاً في عينيها:

وإني أخافُ عليكِ يا صفيّة، بأن تصبحين كوالدتكِ ضحية
بين يديّ هذا الرجل.

واستدرتُ مغادرّاً، تركتها خلفي شاحبة الوجه. وبخطواتٍ
سريعة رحْتُ أهرعُ نحو أرضنا الزراعية لأبات في الكوخ
الطيني الذي سأووي إليه كثيراً بعد الآن.

بقيتُ وحيداً، في ظلمة الليل متمنياً لو تأتي أُمِّي تلّوح لي
بيديها من بعيد، فأهرعُ نحوها أحملها بين يدي.

إلا أن بعض اللحظات لن تعود مرة أخرى، حتى لو
فاوضت فيها بسنين عمرك. ظل قلبي يُعصر بين طياتِ هذه
الليلة العصية حتى توهجت السماء بنور الفجر.

خرجت من المسجد، وقفتُ على قارعة الطريق حيران أي
طريق أسلك.

كنتُ مشوش الذهن رأسي يعجُ بفوضاه الكثيرة. فبينَ
الماضي والحاضر علقْتُ في المنتصف، فقدتُ السيطرة تماماً
على حياتي.

لقد مرَّ أسبوعٍ كاملٍ مذ حوارِي مع صفية، لم أذهب خلاله
للمنزل سوى مرةٍ واحدة لأخذ بعض الملابس وقليلًا من
النقود. اشتقتُ حينها لصفية ولكني سريعًا ما نفضتُ غبارَ
الحنين من قلبي، ومشيتُ نحو الكوخ الطيني.

وما هي إلا لحظات حتى باغتتني الجدة خديجة بزيارتها.

- السلام عليكم يا ولدي..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهلاً، أهلاً جدتي..

رحبتُ بها متلعثماً فقد أخذتني الدهشة لزيارتها، دعوتها
للجلوس ولكنها أبت، أردفت قائلة:

- لن أسألك كيف حالك يا ولدي، فمنظرك يوحي إليَّ
بجالتك المزرية.

طأطأْتُ رَأْسِي، وَابْتَسَمْتُ عَلَى مَضَضٍ، صرخت بي:

- أرفع رأسك يا يعقوب، وعُدْ لِرشدك، فمَنزلكَ ليسَ هنا بل هناك، وأشارت بيدها نحو الطريق المؤدي إلى الدار.

أومأت برأسي معارضًا، فلم تتوانى عن صفعي. كانت يدها مرتعشة إلا أنها بدت قوية حين تهاوت على وجهي. لن أنسى نظراتها الوجلة التي خالطها حرصٌ بالغٌ وغضبٌ دفين. وهي تصف لي فجيعتها حين سمعت بعودة مصباح، لم تصدق ذلك.

لتهرع سريعًا إلى صفيّة، صعقتُ حينما رأيته أمامها بعد سنواتٍ بشحمه ولحمه. طفح وجهها أسفً بالغٍ وهي تخبرني بذلك، حتى إنها لم تستطع إخماد شعلة قلبها حين ومضت في عينيها كالبرق الخاطف وهي تقول:

- إياك والاطمئنان لهذا الرجل، إنه مثل الذئب يا ولدي، لا يستأنسُ أبدًا، مهما أحببته صدقني سيأتي يومًا ما يعضُّكَ ويرحل.

استقبلتُ ما قالتَه مصدومًا، أومأت برأسي موافقًا فأنا
مدركٌ لحقيقة ذلك، ولكني أستغربُ هذا الحزن العميق،
والغضبُ الدفين في عينيها.

كانت تحبُّ أُمِّي أيما حُب، ولكن بدا لي الأمرُ أكبرَ من
ذلك. قلبها يحملُ جرحًا أكبر!

استرسلت، تشهّرُ سبابتها المرتعشة نحوي:

- صفية إياك أن تغفلَ عنها لحظة واحدة.

صمتتُ برهة، وقد بدت عليها علامات الإعياء واضحة
وازدادت ارتعاشه أطرافها وهي تضيف:

- لا تجعلِ صفية تموتُ على يدي مرتين، إياك يا ولدي.

وقعتُ كلماتها كطعنةٍ خنجرٍ على صدري، شعرتُ
بنبضات قلبها وهي تصدر أنينًا مدويًا، وما هي إلا لحظات
حتى سقطتُ بين ذراعي مغشيًا عليها.

صرختُ بأعلى صوتٍ مستنجدًا لعلَّ أحد ما يأتي
ليساعدني، ولكن لا أحد.

لذا حملتها بين ذراعيّ وركضتُ مسرعًا إلى الخارج، ومن
حُسن الحظ كان وليد هناك، جاء للتو من السوق يحمل
أغراضًا في يده، تركها جانبًا وهرع مسرعًا نحوي.

وليد مزارعًا مثلي له أرض بجوار أرضي، وما إن رأيني على
تلك الحال حتى صرخ هو الآخر مستنجدًا بالناس. وما هي
إلا لحظات حتى تجمع بعض الرجال حولنا.. انطلقنا بسيارة
أحدهم، إلى أقرب وحدةٍ صحية. بينما ذهب وليد ليلبغ
عائلة الجدة بما حدث.

-إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. هذا ما قالت الممرضة بعد
فحصها.

تعالّت صرخاتُ ابنتها التي وصلت للتو، أما أنا فقد
أغمضتُ عيني متألمً، أجرتُ قدمي نحو الخارج، تبعني زوج
ابنتها يسألني عما حدث! أجبتُه متلعثمًا:

- لا أعلم.. هكذا سقطت فجأة بين يدي!
أوماً بوجهة ثم قال:

- سنحتاجك لدفن.

أومات برأسي موافقًا، ثم انصرفْتُ لحفرِ القبرِ مع وليد
وأثنين آخرين من شبابِ قريتنا.

وهكذا ودعتنا الجدة خديجة، ولكن لم تودعني كلماتها
الأخيرة، بل ضلّتْ ترُنْ في رأسي مانعة عني النوم لثلاثِ
ليالٍ. عدتُ إلى المنزل بجانب صفية، أنظر إليها وهي تتقلبُ
في فراشها طوال الليل ولا أذهب حتى أطمئن على دفئها
فيه.

حلّ الفجر، أُمعنْتُ النظرَ نحو السماء،
أكثر ما يلهمني ذلك الصباح الذي يلد عقبَ ليلةٍ حالكة،
بعدَ عراكٍ مريرٍ بينك وبين الأرق، لتنتصر عليه بغفوةٍ جفنٍ
تنشلكَ من قبضةِ البؤس.

وها هي الشمس تلدُ بأشعتها الدافئة، فتنير الأفق المعتم
حولك،

هي كذلك بنورها الساطع تقشعُ ظلمةَ الليل الجاثمة في كبدِ
السماء، أو ربما القابعة في صدرك.

تبدو حنونة في ساعتها الأولى، كأول ساعات خروجك من
محنة، من شدة وضيق. بعد عذاب الليل الطويل الذي
تلاشيت في ظلامه متخبطاً تبحث عن بصيص من نور
تقتفي أثره.

ها هي تشرق الآن، لتعيد إليك الدفء من زمهير أعرش
قلبك..

ما إن ينتصف النهار حتى تزداد حدة أشعتها، لتبدو لك
ساخطة كشابة حادة الطباع لا تلك الوليدة، فيحترق
جسدك بلهيبها المدوي، تهرع بحثاً عن ظل، لاهثاً لجرعة
ماء تروي بها عطشك.

ثم تنظر إليها، رويداً رويداً تداخل الوهن فيها، واختلطت
حمرتها بزرقة الشفق. بدت لك ناضجة لا تلك الولود ولا
تلك الحادة، هادئة تماماً كمن شارف على الرحيل، حين
أوشكت دورتها الزمنية لهذا اليوم الدؤوب على الانتهاء،
وانحازت نحو الغروب متوارية خلف السحاب كأنتى خجلة،

أو ربما مُرهقة. أعطت حتى أفرغت من كل شيء لترحل
مغادرة.

لتدرك أن كل شيء له بداية ونهاية: ميلادٌ ومآل حتى
الشمس، لكنها تعودُ في اليوم التالي لتضيء عُثمتك.
ثم تسأل نفسك هل السرُّ يكمنُ في الغياب؟ أم في توقيته
الزمني؟ ليعودَ كل منا مشرقًا كالشمس؟

— متى يحينُ إشراقي؟ متى تُزهر أيامنا يا صفية؟

قلتُ لها هذا متأملًا السماء وقد لاذت الشمس نحو
الغروب. كانت تجلسُ بجواري على المقعد الحجري، تضعُ
رأسها على كتفي بينما تحيطُ ذراعي بيديها.
ابتسمتُ قائلةً: قريبًا يا أخي.

— حقاً؟

— عليك أن تحسن الظن، فتلك عبادة.

اومأت برأسي موافقًا، وتنفسْتُ الصعداء. فقد تجددت
أحزاني بعد الجدة خديجة حينما سقطت آخر وريقاتِ عمرها
بين يدي.

هي من كانت حَقًّا تحملُ من ريح الأحاب ودفع
وجودهم. قد لاذت للغروب، لعلها تشرق في مكان آخر،
شروق لا يعقبه أفول، وبقاء لا يطاوله فناء.

الرحمة على روح موتانا جميعًا، دعوتُ بهذا في آخر دقائق
يوم الجمعة. سقطت دمة هاربة على وجنتي، فمسحتها
سريعًا بأصبعي، وأشحتُ بوجهي نحو باب الدار، لأجدها
واقفة هناك، تمرر سهام نظراتها نحونا.

- كم أمقتُ هذه المرأة،

قلتُ هذا لصفية حينما رأيتها. ما لبثت صفية حتى دارت
برأسها على الفور لترى راوية تشيرُ لها بالقدم، لتذهب
مسرعة نحوها. كنتُ اقرأُ في عينيَّ صفية كل ما تحاول
جاهدةً أن تخفيه من عناء ومشقة تتلقاها من هذه المرأة.

قلتُ:

- سحقًا، وضربتُ بقدمي على الأرض.

وما هي إلا لحظات حتى سمعتُ أذان المغرب، اتجهتُ إلى
المسجد وبينما أنا في الطريق، جاء رجل يسرعُ في خطواته
نحوي، كان الغضبُ بادياً على وجهه، ما لفتَ انتباهي هو
صهر الجدة خديجة حيث كان يركضُ خلفه، يحاول إيقافه.
لكن الرجل كان مهتاجًا والشرُّ يتطايرُ من عينيه، وما إن
أقترَبَ حتى لكمني على وجهي من قوتها كادَ يغشى عليّ.
سقطتُ على الأرض، صرختُ: من أنت؟

كان جوابه، هو المزيد من الصفعات، لم أستوعب ما
حدث، من هذا؟ وما الذي فعلته كي يعتدي عليا
بالضرب!

أخيرًا تجمع الرجال حولنا شكلوا حاجزًا بيني وبينه، وكلما
أندفع نحوي دفعوه بعيدًا.

صرخ بصوتٍ أبح: ما الذي فعلته بأمي أيها القدر، أبُن
أبيك قاتلٌ مثله.. ولكن أقسم لك سأقتلك أنت وأبيك،
سأنحركما في هذه الليلة! وراح يزيدُ بألفاظٍ قبيحة.

في البداية لم أعرف من هو، ولكن لاحقًا علمتُ بأنه الابن
الأصغر للجدّة خديجة. ذلك الشاب اليافع الذي كنتُ أراه
مع مصباح في طفولتي، كانا صديقين، أو أشبه بصديقين
لدودين على الأغلب.

توترت علاقتهما لتتحول إلى عدااء مُعلن، انتهت برحيل
مصباح مع راقصة بيت البغاء. أتذكر ظهيرة ذلك اليوم
حيث جاء يبحث عن مصباح والخنجر بيده، بدا وكأنه
سيقّته، ولكن حين لم يجده سرعان ما رحل والغضب
يتأججُ في عينيه. ثم تدهورت حالته جدًّا بموت أخته
الصغرى، فقد ماتت منتحرة بثلاث طعنات بالخنجر، رثتها
والدي لسنوات حتى أنها قامت بتسمية صفيّة باسمها إكرامًا
لها.

بعدها ابرحني سالم ضربًا عدتُ منهكًا الى المنزل، استقبلتني
صفية فزعة، هرعت تحتُم بي، وبينما هي كذلك قاطعتها
راوية:

- اذهبي إلى أبيكِ فهو يناديكِ

- سأهتم بيعقوب أولاً..

- لا عليكِ، أنا سأهتم به.

أنهت حديثها وغمزت بطرفِ عينها لي، شيئًا ما يرعبني
بهذه المرأة. اقتربت وضعت يدها على ياقة قميصي، وبدأت
تفتح الأزرار.

انتفضتُ قائلاً: لا داعٍ لذلك.

جذبت ياقة القميص نحوها وقالت بصوت أشبه للهمس
وهي تنظرُ لعيني: لا تخف أيها الصغير.. فلن آكلك!

أنفاسها لفحت وجهي لشدة القرب. تسارعت نبضاتُ
قلبي. ابتسمت هي فور إحساسها بذلك. وفي تلك الأثناء
عادت صفية.

تنحّت جانبًا، عضت شفتها السفلى ثم قالت بغنج:

- كم تبدو صفيّة مصرّة على الاهتمام بك يا لك من
محظوظ.

ثم استقامت سريعًا وانصرفت.

تنفست الصعداء، بدا وجهي مخطوفًا، لتسألني صفيّة: ما
بك؟ قلت سريعًا:

- لا شيء. وعدت لأحكي لها ما حدث.

- سالم!! هو من كان مغتربًا لسنوات طويلة، حتى كاد
وجهه يُنسى من ذاكرة امه؟

هكذا ردت صفيّة، بما كانت تشكوه إليها الجدة دائما.

تحسستُ جانب وجهي متألمًا أثر تلك اللكمات القوية التي
انخالت عليّ، واصفًا لصفيّة المشهد كله وحجم ما يضرر لنا
من حقد هذا الرجل.

- حقًا لولا تدخل الرجال سريعًا ليدفعوه بعيدًا عني كاد
حتمًا سيقتلني!

— حماك الله يا أخي، لقد عاد لتوه من سنوات غربة طويلة،
ثم قل لي ما أداره بحجم علاقتنا بالجدّة؟ لا تقلق غداً
سيخبره الجميع بعمق مكانتها في قلوبنا.
اومأت برأسي موافقاً، وداخلي مضطرب. كيف لا أفلق بعد
ذلك كله!

من نار الحقد التي رأيتها متأججة في عينيه، ام من كلام
الجدّة الذي يتكرر في رأسي، نهار مساء: (لا تجعله يقتل
صفية مرتين)!

تُرى ما علاقة مصباح بحادثة صفية؟ ولما كل هذا الغضب
بعيني سالم؟ خفتُ أن أنقل لصفية هذا الحديث فأهزُ
طمأنينتها، لذا فضلتُ الصمت عن الحديث. وحين سألتني
عن سبب قدوم الجدّة إليّ، أخبرتها: كي أعود إلى البيت
بجانبك. دون أن اتطرق لذكر أي تفاصيل أخرى.

اكتفيت بنُصحها بأن تخلد للنوم باكراً، وأن تحرص على
إغلاق باب غرفتها كل ليلة. وأن تحذر من راوية ومصباح
أشد الحذر.

في البداية استغربت هذا، ولكن مع مرور الأيام أيقنتُ بما كنتُ أعني، فمزلنا لم يعد منزلنا، ولم يعد كل ما فيه لنا أو يشبهنا.

صوت القران الكريم الذي كنا نصحو عليه كل صباح، حرمننا منه، فهو يزعج مصباح وراوية فنومهما يمتدُ حتى الظهر.

ناهيك عن هذا السبب، فهذا الرجل يكره صوت القران عموماً يثير غضبة وسخطه. لم استغرب هذا مثل صفية التي استنكرت منه وخافت، بل كنتُ متيقناً بسوء اخلاقه التي تزيد سوءاً يوماً عن آخر.

حتى عادَ إليه رفقاءه القدامى، يلتفون حوله واحداً يجر آخر، شلة الفساد ذاتها قد تجمعت من جديد، وأين؟ في منزلنا!

أي خير سنراه الان؟! صرختُ بهذا لصفية التي راحت تهدأ من روعي كالعادة خشية أن يسمعني أحد، صرختُ بها من جديد:

— كله بسببك، إن وقفتي بجانبك ذلك اليوم ما كان سيحدث كل هذا.

تجاهلتُ الحزن في عينيها وانصرفتُ سريعاً نحو مصباح، الذي كان جالساً، يتناول طعام الغداء، كانت الساعة تشير نحو الثالثة بعد الظهر، تجاهلني في البداية، قلت:

— ألا تخجل؟! رفع بصره نحوي وقال:

— ماذا تريد؟

— يحجل الانسان ألف مرة بأنك أباه. قلتُ هذا دون أن أفكر وانصرفت، قبل أن تحدث معركة لا جدوى منها بيننا. عدتُ بعد ساعة، لم يكن موجوداً في المنزل. كعادته ذهب إلى سوق القات:

— هذا ما يفلح به ذلك الرجل.

زفرت بهذا، وامثلت لأقوم بعملتي، لم أعد فارغ اليدين بل عدتُ محملاً بالطوب والإسمنت. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى انتهيت من سد باب الحجرة، التي بدأ ورفقاءه بتجمع فيها،

وفتح باب آخر خارجًا، لأضمن عزل الحجرة تمامًا عن الدار.

متجاهلاً تمامًا اعتراض راوية الذي أستمِر حتى عاد نحو السابعة مساءً. غضب قليلاً ولكنه سريعاً ما عاد ليهدأ..

أما أنا فقد كنتُ منهكاً، نمتُ في تلك الليلة باكراً، ولكن حتى النوم لم يعد ملاذاً آمناً بالنسبة لي، فقد توالى عليّ الكوابيس تلك الليلة، صراخ أمي، دموع جدي، وآخر ما قالته الجدة خديجة: لا تجعله يقتلُ صفيّة مرتين. وتتابع الكوابيس حتى رأيت ملاءة بيضاء نحو مدرجاتٍ خضراء تتقدمني، أمشي حذوها، تائهاً، ضعيفاً، وحيداً بلا شيء..

حتى القمة، ارتفعت الملاءة عالياً، حتى تلاشت في الأفق. كان الضباب كثيفاً ليغطي كل شيء. فجأة تلبدت السماء بغيومٍ ثقيلة، وأمطرت دماً لا ماء، ليتل جسدي كله، وسقطتُ مغشياً عليّ من أعلى إلى أسفل في ضباب كثيف.

صحوت فزعًا ألهمت، وجدتها بجاني، ظننتها شبعًا في
البداية فصرخت:

- ما الذي تريدينه؟

- جئتُ لأطمئن عليك لا أكثر، ما بك؟!

- لا داعٍ لذلك.. اذهبي

ما زال جسدي يرتجف، وقلبي يخفق مضطربًا. غابت قليلًا،
ثم عادت ويدها كأسًا ماء. دنت مني غير مصغيةٍ
لاعتراضي، جذبتني إليها لتسقينني، ثم وضعت كفها على
جبيني، تمسح قطرات العرق المتجمعة عليه، وأراحت الأخرى
على ظهري تربّت عليّ برفق حتى هدأت.

بعدها ارتقيتُ على الفراش، فاستلقت إلى جوارِي. ظننتها
أنها سترحل، ولكنها بقت تداعب خصلات شعري بأناملها
في حنان حتى غلبني النعاس. وللحظة شعرت بقبلةٍ رقيقةٍ
تلامس شفتي... أكان حلمًا أم حقيقة؟ لا أدري. لأستيقظ
في الصباح مشوش الذهن.

هكذا كانت راوية؛ ما إن تنفرد بي، حتى تتسلل إليّ. ولكن ما حدث في المرة الأخيرة أزعجني. لست متيقناً بعد، غير أنه بدا حقيقي إلى حد كبير. استيقظت باكراً، وسرتُ على أطراف قدمي، ثم خرجت مسرعاً، فلم اشاء أن أرى أحداً؛ لذلك قضيتُ النهار كله في الحقل.

وحين عدتُ مساءً وجدتُ مأدبة كان قد أقامها مصباح على شرف سالم!

- ما الذي يحدث هنا؟

- لقد تصالح سالم مع والدي، ألم أخبرك بالأمر؟

هكذا اجابت صفية فرحه، وأضافت:

- أخبرني أين كنت طوال النهار؟

صعقتُ لذلك، صرختُ:

- أي تصالح، ما هذا الهراء الذي تقولينه؟!

استغربت مني ذلك، صمتتُ برهة ثم اضافت:

- لا بد بأنك تتضور جوعًا، سأضع لك الطعام.

تجاهلتها، واتجهت خارجًا نحو حجرهم، كانوا قد انتهوا من
عشاءهم، كل منهم يمسكُ بعودٍ قاتٍ يمضغه بصمت،
أقبلتُ عليهم..

صرخ أحدهم مُرحبًا بي:

- أهلاً بـيعقوب، أهلاً بأسد أبيه.

قال الآخر:

- أهلاً بك، وأخيرًا تواضعتُ لتسلم علينا أيها الشاب. رد
عليه الآخر:

- (لا تزعج الفتى، هكذا شباب اليوم جميعهم منغلِقون على
أنفسهم.

رحبوا بي كلٌّ بطريقته، عداه هو؛ ظل يحذِّقُ بي في صمت،
تبادلنا النظرات ذاتها هذه المرة، أمعنْتُ النظر مليًا في عينيه،
فإذا بشعلةٍ من الغضب تستعر فيهما، ضاقَ صدري،
وانتابني الجزع.

استدردتُ خارجًا، أوقفني صوتهُ حين قال:

- يا لكَّ من جبان، هكذا ترحل دون أن تسلم على
ضيوفك، ام أنك ما زلت حاقدًا عليّ؟!

تقدم نحوي ومدَّ يده ليصافحني، هنية مضت، حتى مددتُ
يدي إليه لأصافحه، سريعًا ما قبض عليها بقوة، حتى أمتني
شدتها.

هذا الرجل يخفي حقًا دفينًا، ادركتُ ذلك.
زادَ جزعي، حاولتُ ألا أظهر له ذلك. وخرجت سريعًا من
تلك الحجرة، أستنشق الهواء..

لم أنم تلك الليلة ولم ينم أحد فينا، ضُجَّ الدائرُ بأصوات
الطرب، أغاني تتردّد من المسجّل لأبو بكر سالم، فيصل
علوي، وأيوب طارش، وغيرهم من الفنانين اليمينين..

لم أكن أحبُّ ذلك النمط من الغناء، ولم أحبُّ الطربَ في
حياتي. ! لستُ من أولئك الشباب، الذين يهيمون بالطرب
وتترافق قلوبهم مع النغمات.

أنا أبحث عن مأوى في هذا العالم الكبير، يعصمني من
الخييات، يسترني من عورات آلامي.

لست ممن يهيمون بالطرب، ويمضغون أعواد القات.

لدي منزلي وأحلامي، ولكن بقيت في الشارع. تحت
قطرات المطر، أبكي.. وأبكي من توالي الخييات.

عالمًا بين نارين، ليس باستطاعتي الهرب وترك كل شيء
خلفي، وليس باستطاعتي أيضًا أن أبقى!

إلى أين يذهب المرء حين يضيق به العالم، إلى أين يسري؟ لا
أم هنا، ولا أب. وحيدًا وجدت نفسي.

توسدت الأرض والتحفت السماء، ورددت كلمات من
أبيات لم أدونها، لتغفوا عيني على مرفأ يسمونه الأحلام...

رأيتها أخيرًا، أقبلت، بطلتها التي تشبه الحلم، عينيها،
وجنتيها، شفتيها، وجديلتها التي امتدت إلى أسفل ظهرها
كشلال جار.

هكذا بدت؛ خيال، حلمٌ وردنيّ تحيطُ به الأزهار والأشجار،
تضحك فيضحك فؤادي، تبسمُ فتبسم الحياة.

نمتُ كما لم أنم مذ فترة، مذ صرتُ حبيسًا للأرق، حظيتُ
أخيرًا بنومةً هانئة. ولكنني دفعتُ ثمنها غاليًا.

حينما أيقظتني صفية صباحًا، بصعوبة بالغة فتحتُ عيني،
كانت حرارة جسدي مرتفعة.

صرختُ:

- لم أرَ أحدًا يكره نفسه قدرك، تركت دارك ونمتَ هنا؟

ابتسمتُ لقولها:

- كره الذات في جيناتنا يا صفية.. إنه يمشي في العروق، في
العروق يا عزيزتي، مثل الدم.

- ويحك!

أسندتني إلى الفراش، ولأسبوع كامل بقيتُ طريحًا، لا أقوى
حتى على رفع رأسي.

لم يكلف خلالها مصباح نفسه ليطمئن عليّ، ولو بنظرة.
بل، ولكيلا أظلمه، فعلها مرة حين جاء ليبصق في وجهي
ويقول:

- فاشل، يا لك من شاب عديم النفع!

كنتُ حينها أبقى في حجرة صفية مستلقيًا على فراشٍ أُمي.
حين تسلل ليفتش الحجرة حتى وجد المال الذي كنتُ
أدَّخِرُهُ.

كنتُ قد فكرتُ قبلها بأن آخذ صفية وأهج من هنا،
ولكن يبدو بأن هذا الأمر لن يحدث.

تحولت صفية إلى جدتي، تذهب إلى الصيدليات لتبتاع
الدواء لي. ثم تمضي الليل كله تمرّضني¹⁰ أما مصباح فقد كان
مشغولًا بهدر المال على القات والشراب، حين عادَ لشرب
الخمر بعد ثلاثة أسابيعٍ فقط من مكوثه بيننا.

ولم يقتصر على هذا الأمر فحسب، بل هدر الخراف أيضًا،
كل ليلتين يذبح خروف أو اثنين، فقط ليستعرض كرمه

10. تقوم بمداواة ورعايته.

امام رفقاءه السُّكَّارَى. فيمضون يسهرون الليل كله،
ويدندنون مع عزف العود طربًا.

اما راوية على رغم سوءها إلا أنها لم تبلغ مبلغه في ذلك
الوقت، مراتٍ كانت فيها تجلبُ الطعامُ إليَّ، وأخرى تضع
كماداتٍ على رأسي.

ولكني كنتُ أضطربُ كلما اقتربت. ما أردتها أن تأتي إليَّ
بشيء.

من حُسنِ الحظ بأني كنتُ أبقى مع صفية في الحُجرة ذاتها،
فأضمن بذلك عدم تسللها إليَّ مساءً كاللصّة مثل تلك
المرّة.

وكأنها شعرت بذلك فلم تبادر بالقدوم إليَّ كثيرًا. هي أيضًا
قد بدى عليها التعب، في الآونة الأخيرة، بدّت وكأنها
مشغولة بأمر ما يؤرقها.

بعد أيام كنتُ قد بدأت استعيدُ عافيتي قليلاً. وخلال هذه الفترة كان مصباح قد أعلن فسقه، ومن الصعب إعادة الأمور إلى نصابها.

ما إن انتهت النقود التي نهبها، حتى أمسى الليل يعوي، بعدما انصرف رفقاءه. لم ينتظر للصباح حتى هدم الحُجرة فوق رأسنا، يفتش عن مال. فتحتُ عينيّ، في البداية لم استوعب ما يحدث، ولكن سريعاً ما أدركتُ همه، صرخت به:

— أي مالٍ لازلت تبحثُ عنه، ألم تنهبهُ مذ أسبوع أيها....،

كنتُ سأشتُم ولكني تراجعَت. ومع ذلك توجه نحو ليضربني. صرخت صافية:

— أبُتعد عنه!

أما راوية فقد كانت قريبة منه، أحاشتُهُ عني فصفعها، وبحركة سريعة أنتزع السلسال من عنقها وأنصرف خارجاً.

ركضت نحوه تسبُّ وتشتتم، لم يتراجع، كان قد ذهب.
ومضى تلك الليلة خارج المنزل. أما هي فقد مضت ليلتها
تنوح على سلسالها الذهبي.

قبيل شروق الشمس، تفقدتُ أغنامي أو ما تبقى منها!
ذهبتُ للرعي.

بعدها توجهتُ إلى الحقل وهنا كانت الصدمة، كان
مصباح هناك مع بضعة رجال يقومون بحصاد محصول الذرة،
صرختُ بأعلى صوتٍ:

- ما هذا، ما الذي تفعلوه أنتم؟

قال الرجل: لقد اشتريناه، هذا حقنا.

وحين أقدمتُ على منعهم، قام مصباح ببرحي ضربًا. كان
ما يزال جسدي ضعيفًا سقطتُ أرضًا، وبسرعة أدهشت
الجميع قيد ذراعيَّ بحبلٍ وجرتني جرًّا نحو سيارته الخردة،
ومشى بي نحو المنزل.

لم يكن بيدي سوى إطلاق الشتائم والسباب طوال الطريق،
هو أيضا بادلني الشتم ذاته، بل بما هو أردأ منه.

حتى وصلنا إلى الدار، راح يجزني مثل الخروف. ضحك
راوية بدهشة وهي تفتح لنا الباب، أما صفية فراحت تصرخ
وهي تحاول فك قيدي:

— ما الذي حدث؟؟ ماذا هناك.. أتركه.. أتركه مازال
مريضاً.

دفعها بعيداً، وجرني بقوة نحو حُجرتها، ثم دفعني للداخل
وأغلق الباب خلفه.

وهكذا سلب مني مالي وحريتي، فلم يبق لي شيء. ضاعت
شهور من الجِدِّ سدى. انسابت دمةٌ بائسةٌ على خدي، ثم
رمىْتُ بجسدي على الأرض، وعلقت عينيَّ بسقف الحجرة.
— ذهب ما خططتُ له أدراج الرياح.

تمتُّ بذلك وأنا أعضُّ على شفئي متحسراً. كنت قد
عقدت العزم على اصطحاب صفية والرحيل من هنا إلى
أرض لم تطأها بعد قدمي مصباح قط.

بعد كل ما رأيته من فسق هذا الرجل، غدا الرحيل قراراً
محتوماً. فلم يعد بقاءنا هنا آمناً، لا من أجلي، بل من أجل
صفية.

ما زالت الكوايس تلاحقني كل ليلة، ولم يفارق حديثُ
الجدَّة ذهني لحظةً واحدة.

أما الآن، فمن أين سأتي بالمال للرحيل؟ من ينشلي من عمق
الأسى، من قاع القهر والعدم؟ كدتُ أصرخ، لكنني تنهدتُ
بدلاً من ذلك.

حتى حل المساء، جاءني صفية تحملُ صينية طعام.
فالتهمتُ ما عليها بشراهة، رغم بُؤسي، فقد كنتُ أتضورُ
جوعاً.

- منذ الصباح وبطني فارغ،

هكذا قلتُ لصفية، فحين رأَني طفرت عيناها بالدمع.
قلتُ مَمازِحا:

- لا تحزني، فقد فاز أخيك اليوم،

رفعْتُ الملعقة أمامها، وأردفتُ سريعًا:

- هكذا يفوز الخاسرون بطعامهم، يا عزيزتي.

راحت الدموع تنسكبُ من عيني صفية، وأجهشت بالبكاء.
لم أبطبْ عليها، بل واصلتُ طعامي صامتًا، اختفت لذةُ
الطعام حينها من فمي وصار مضغَةً مقبِيةً.

رميتُ الملعقة جانبًا، وخاطبتها بنبرة أمره:

- لا تبكي.. لا أريدُ بكاءً، شيء واحد عليك الآن القيام
به هو أن تساعديني.

توسعت مقلتيها وهي تستمعُ إليّ، لم تمتلك الجسارة لأن
تفعل ما طلبته منها، ولكن كان ينبغي لها أن تفعل.
فالعواقبُ وخيمة، لن تراني مجددًا هكذا هددتها.

وقبل أن تقول شيئاً أطلت راوية تخاطبُ صفية:

- أنتِ هنا والمطبخُ قدرة، هيا.. هيا، انصرفي الى عملك.
كان سلسالها قد عاد إلى رقبتهما، لاحظتُ ذلك فوراً، قلتُ
ساخرًا:

- كم أنتِ قوية يا راوية، ما سُلِبَ منك في الأمس ها قد
عادَ إليك اليوم.

، ابتسمت لحديثي، غمزتُ بطرفِ عينها وقالت:

- هل تريد أن أعلمك شيئاً من دهائي أيها الفتى؟

ضحكتُ ساخرًا، وقلتُ:

- لا

قالت منتصرة:

- فالتقبل خسارتك إذا.

في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، فتحت الباب،
تسللتُ بهدوء، وعلى أطراف أصابعها مضت للدخل.
كانا غاطين في نوم عميق. ولأنها لمحتُه حينَ خبأ المال، لم
تمكث طويلاً في البحث عنه. مدت يدها المرتعشة نحو
الخزانة، سحبت النقود الملتفة بكيسٍ بلاستيكيٍّ أحمر.
مضى كل شيء كما خُطَّط له، لتعود أدراجها إلى الخارج.
مشت بالخطر ذاته، وحين اقتربت من الباب، اطمأنت إلى
العبور فأسرعت. لم تنتبه إلى العلبة الموضوع جانبًا حتى
ركلتها، فضجَّ صوتها في المكان.
اضطربتُ، أختلَّ توازنها من شدة الخوف.
تنحنح مصباح، وصرختُ راوية:
- من هناك؟

كُشف أمرها، وضربت صفية صباح ذلك اليوم للمرة الأولى في حياتها على يد مصباح. سمعت الأصوات، حاولت نزع الباب لنجدتها، ولكن لم أستطع.

وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب. ألقى صفية إلى الداخل، وهجم عليّ، ولكن هذه المرة لم أدعه ينجوا بفعلته، تفاديت ضرباته كلها، ثم انحالت قبضتي على وجهه بعدة لكمات، ولم أقف عند ذلك فحسب، بل هجمت على عنقه، تمامًا كما فعل بي من قبل، ولولا صفية وراوية اللتان تدخلتا سريعًا، لكنّ أزهقت روحه في تلك اللحظة. سحب كيس المال من يد راوية، التي بدأت تصرخ وتمانع، لولا الغضب الذي رآته جليًا في وجهي. فخنعت.

وفي ذات اللحظة صرخت عاليًا بصفية:

- ضعي شيئًا على رأسك سنذهب!

إلا أن صفية بدت مرتبكة وخائفة، صرخت بها:

- هيا!!

وبينما هي كذلك تقفُ مترددة، أَسْتَعَاذَ مصباح عافيته،
ضربَ رأسي بشيءٍ ما، ليسقطَ المال من يدي، هرعْتُ راوية
سريعًا لأخذه، ثم هربتُ به نحو غرفتها.

وبالسرعة ذاتها تقدم نحوِي ليصفعني صفعَةً وراء أخرى، حتى
سقطتُ على الأرض ثم بدأ بركلي حتى أوصلني إلى عتبة
الباب الحديدي، وهنا دفعني دفعًا بقدميه خارجًا وأغلقَ
الباب.

كان الدمُ يسيلُ من شفتي ورأسي المجرَّوح، وجسدي الذي
أمتلئُ بالخدوش، ولكن لا شيء من هذا آلمني بقدرِ صُراخ
صفية في الداخل.

وهكذا حُبست صفية بدلًا عني، أما أنا فقد تم طردي خارج
المنزل دون عوده.

كان ينبغي للحكاية أن تنتهي في ذلك الفصل، قاتل أو
مقتول، دم كلاً منا إذا هُدر بيد الآخر في ذلك اليوم لكان
خيرًا له.

عدتُ إلى ملاذي القديم، إلى كوخِي، جسدٌ منهك، وروحٌ
تائهة. لا أمل يلوّح في الأفق، كيف سأعيش؟

انتهى ذلك اليوم وأنا مسجى على الفراش كجثةٍ هامدة،
واستمرت الدموع تنسكبُ من عينيّ دونما توقف.

انطفأ بصيصُ الأمل الذي كان يلوّح في آخر النفق،

هكذا سلبتُ حياتي مني.

أطالبُ من بحقِّ العيش؟

بحقِّ الكلمة والكرامة..

بحقِّ المعنى والفهم، بحقِّ المالِ والدم، أطالبُ من؟

من يسمعي؟ من يفهمني؟

في هذا العالم، كل الناس أصبح فيه صمٌّ وبكم.

جميعهم ينظرُ للحق، ويصفقُ للباطل.

لن يثار لك أحدًا سواك!

هذا ما كتبتَه في بداية الورقة الخامسة والتسعون من دفترِ
سردِ يومياتٍ، ليست يومياتٍ، بل مشاعر مبعثرة أنثرها على
ورق، أزينُ حزني بحبر الكلمات، أونسُ نفسي بها في ليالٍ
الأرق.

هكذا كنتُ دومًا أبوحُ للأوراق بما فاضت به روحي. من
أسى وبؤس وأحداث أثقلت كاهلي، تقيأُها كلها على
ورق.

ولم يبقَ لحزن الليلة سوى خمس ورقات، رحتُ أسكبُ فيها
بؤسي حتى فاضت.

وفي اليوم التالي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، كنتُ لا أزال
نائمًا، حين سمعتُ صوت من الخارج:

- يعقوب هل أنت في الداخل؟

فتحتُ عيني، لم أستوعب بداية من هذا، قليلًا حتى دفع
الباب، ودلف إليّ.

بدا وليد أصفرَ الوجه، نظرَ إليَّ عاتِبًا، صمتُ نحو دقيقةٍ

كاملة، تنهد ثم قال: كيف فرطت بها؟

انتفضتُ من فراشي فزعًا وصرختُ به:

- فرطتُ بمن؟ بماذا تهذي؟

- صفية وسالم كيف يعقل هذا؟؟

وثبتُ من مكاني بسرعة الضوء، تشبثتُ بتلابيب قميصه،

وأضفتُ والشررُ يتطاير من عيني:

- أي صفية وأي سالم؟ ما الذي تقوله؟؟

دفعني عنه وقال مستغربًا:

- ألم تعلم؟! قد خطبت صفية لسالم صباح هذا اليوم.

لا أعلم ما الذي حدث لي لحظتها، تجمدتُ فجأةً، أبحلقُ

في وجهه بصمت فالصدمة كانت أقوى من إبداء أي ردّة

فعل.

أقترب وليد بقلق، يكرر أسمى ويهز كتفي لأفبق. كنتُ
عاجزًا تمامًا عن قول أي شيء، حتى الدموع كنتُ قد
ذرفتُها كلها ليلة أمس. شعرتُ برغبة عارمة في البقاء
وحيدًا، لذا أشرتُ إليه بيدي أن يرحل، لكنه لم يشأ.
أصررتُ، وقلت بصوتٍ واهن:
— أذهب.

بقيتُ وحيدًا في تلك الحالة من الجمود، لا أعلم كم مضى
من الوقت. كان الجوُّ عشياً، فمشيتُ نحو الباب بخطواتٍ
واهنة، وما إن دفعته وخرجت حتى هبَّت الرياحُ تضربُ
أوصالي، عندها سعلتُ سعالاً شديداً، فما زال جسدي
مريضاً، ولكن حال قلبي أشدُّ بؤساً منه.
لن أتحدث عن هذا القلب الممتلئ بالندوب، وسأصمُّ سمعي
عن أنيه.

اغمضتُ عيني، ومضيتُ أمشي تائهاً، حتى أرحى الليلُ
الكئيب سدوله. كانت ظلمته موحشة، كأن الطريق وحده
يفهم ثقل ما أحمله في صدري.

تبعثرت أفكاري، كما تتبعثر أوراق الخريف تحت أقدام
العابرين، وقفت لحظة أستجمع أنفاسي، ثم مضيت نحو
الدار.

لم أكن أحمل نية خوض نزال، فقد كنت مرهقًا، لا أريد
سوى أن اطمئن، اطمئن فحسب. وما إن اعتليت الهضبة،
حتى رحت اتواري خلف الشجرة.

أنظر نحو حُجرتهم بصمت، كان بابها مفتوحًا على
مصراعيه، ليتجلى مصباح أمامي، يجلس متكئًا، بدا هائمًا
مع عزف العود الذي دوى عاليًا، يدندن وعود القات في
يده، يتحسس وريقاته الخضراء، ثم يمضغها منتشياً وما إن
أفرغه حتى رماه جانبًا، وبطرف أصابعه امسك بيراع التبغ،
شفط ما بداخله بشغف، ثم نفث بدخانه بزهو في الهواء.

رحت أنادمه من بعيد كما لو أنه يسمعي:

- لو أنك رجلٌ بحق، كما ينبغي للرجل أن يكون، لما آل
بنا الحال إلى ما نحن عليه، ولكنك نكرة حقيرة، تؤثر دوماً
أن تكون كذلك. فيا أسفاه على حالنا يوم أتيت.

أمر فضيع أن يشعر المرء بالغربة داخل حدوده، أن يغرق
بائساً بصمت بمستنقعات آثام الآخرين التي لم يقترفها هو.

كان كل شيء في ذلك المكان هو لي ولكني كنت غريباً
جداً عنه، حتى نفسي لوهلة شعرت بأني لا أعرفها!

وبينما أنا كذلك ألوّك حشرات، ظهر جسد غريب فوق
السطح لم أميزه بدايةً، ولكن حينما أقترّب بدا وكأنه جسد
امرأة...

شعرت موج يطير مع نسيمات الهواء، جسد مكتمل واضح
المعلم،

تمت هامساً:

- هل يعقل بأن تكون هي؟!

وما هي إلا لحظات حتى انقشعت السحاب من وجه القمر
لتبدو راوية بكامل خلقتها، قد أعطاه القمر شيئاً من لونه،
حين رسم تفاصيلها بخيط ذهبي. بدت كجنية خرجت من
كتب الأساطير، هائمة تقف في الأعلى.

- ولكن ماذا تفعل هذه المرأة على السطح؟
قلتُ هذا، وتقدمتُ خطوةً إلى الأمام، لعلني أوقفها فالرجال
جميعهم في الداخل، ألا تحتشمُ هذه المرأة؟!

ولكني سريعًا ما تراجعْتُ، حينما صرختُ بأعلى صوتها
مناديةً له:

- مصباح، يا مصباح، أين أنت؟ تعال لأهديك هذه
الرقصة يا عزيزي!

كان صوتُ الطرب يدوي عاليًا، إلا أنهم ميّزوا صُوتها،
أنْتَفَضَ مصباح من مقعدهِ فزعًا، كأنه عَلم بماذا ستفعل.
تبعهُ أصحابه إلى الخارج، تواريتُ سريعًا لأختبئ خلف
الشجرة.

أصطفَ الجميع ينظرُ إليها، كلٌّ منهم يتذكر حكاياته،
فاضت الرغبة من أعينهم المعلقة على جسدها المكشوف،

حينَ بدت تتمايل بهِ كما تتمايل ألسنةُ النار مع هبوب
النسيم.

هزت خاصرتها على إيقاع دقاتِ الفؤاد التي دوى صوتها
صُخب. بفستانها الأحمر، لسعت الجميع بلهيبها، وراحت
ترقصُ كما لم ترقصُ امرأة قط أمام أعينهم من قبل.
لم تكن امرأة عادية، بل كانت امرأة الشيطان.

كان ماضيها زاحراً بالمكائد. هذا ما رأيته في عينيّ سالم،
كان يخفي في عينيه حُزناً ويتلعب ريقه بمرارة، وهو ينظرُ
إليها..

وما إن انتهت من عرضها المبتذل، حتى نظرتُ إليه دون
سواه، تبادلا النظرات، لمعت عينيه فجأةً بخبث، ابتسم
نصف ابتسامة وانصرف صامتاً.

أطلق أحد الرجال تصفيرة عالية، كان أشدهم سُكراً،
وأضافَ ساخراً:

- مازالتِ مذهلة تمامًا مثلما عهدناكِ، ما زلتِ تملكين
القدرة ذاتها على إشعال القلوب، كم أنتِ ماهرة يا عزيزتي
كم انتِ ماهرة.

وما إن أنهى كلامه حتى راح يصفقُ بيديه بحرارة ويضحك
بجلل، لينظم بقية الرجال إليه بتفاهة نفسها.

قال آخر وهو يضحك، يخاطبُ مصباح:

- أشكرك يا صديقي على هذه الضيافة الرائعة، فقد ذكرتنا
بأيام الخوالي، كم أنتَ محظوظ يا صديقي، حقًا كم أنتَ
محظوظ!

لم يترثِ مصباح على لكم وجه هذا وصفع الآخر. ثم
صرخ فيهم جميعًا أن يغادروا. وماهي إلا لحظات حتى لموا
أشيائهم وغادروا بصمت.

ولكن ما لبثَ أحدهم إن أبتعد قليلًا حتى أنفجر ضاحكًا،
ليتبعه الجميع بالضحك.

أما مصباح فقد أسودَّ وجهه تمامًا، وحمّرت عيناه. رغم
دناءته، إلا أنه كان يحمل مشاعر غيرة تجري في دمه،
لينصرف إلى الداخل لمحاسبة راوية.

تقدمتُ سريعًا نحو الدار، ومن النافذة المواربة رحتُ استرقُّ
النظرَ إليهما. للمرة الأولى صرخ عليها ساخطًا:

— ما هذا العرض السافل الذي قمتي به؟

أخذ يشدُّ ذراعها بقبضة يده، والأخرى طوق بها عنقها.
جزّ على أسنانه وأضاف قائلاً:

— ام أنك تتطوقين لمهنتكِ القديمة، أتشتاقين لزبائنك
القدامى أيتها الفاجرة؟ فعلتي هذا من أجله؟ أليس كذلك
أيتها الدنيئة؟ أنطقي!!

لا أخفي بأنني شعرت بلذة رضا تسللت إلى أعماقي، فأخيرًا
بدأ يعاملها كما عامل أمي لسنوات. ولكنها كانت أقوى
من والدتي، تملصت من بين يديه، وبسرعة أخذت مزهرية
الفخار الموضوعة جانبًا، وحطمتها على رأسه، ليتوارى عنها.

جثا على ركبتيه يتحسس رأسه المجرّوح، صرخ بها:

- اللعنة عليكِ ايته الشيطانة!

- صرخت: نعم شيطانة!

كان الدم يسيل من رأسه، صرخ:

- ناوليني منديلاً!

لم تفعل، ظلت تبخلق به بصمت. ثم قالت:

- إياك أن تفعل! لن تزوج صافية بسالم، لن أقبل بهذا مطلقاً.

فَارَ الدم في عروقه:

- هل حنيتي للماضي يا امرأة؟ هل ما زلتِ تعشقينه؟ لماذا هربتِ معي إذا؟

أجابت فوراً وهي تغالب البكاء:

أنت وعدتني بالزواج أما هو فلا، كان سيتزوج من فتاةٍ أخرى أمام عيني.

صمتت قليلاً ثم أضافت:

— أَسْتَحَقُّ ما فعلتهُ به، ذلك المال الذي سرقتهُ منه لأعطيك إياه ونُحْرِبَ معاً، لقد تكبد خسائر عديدة وظلَّ مديوناً، حتى أنه عاش سنواته مهاجراً في بلدٍ آخر.

أتظنه سيغفرُ لنا ذلك، أم أنك تصدق بأن الزمن كفيل بأن يُنسيه كل ما حدث؟

ناهيك عن هذا كله ألا تخجل أيها الماجن الحقيِر من قصة صفية، الفتاة التي تركتها حُبلاً منك وفررت هارباً! تلك الفتاة التي قتلت نفسها لتداري فضيحتها هي أخته، أخته التي كان شديد التعلق، بما كما هو متعلقٌ يعقوب بصفية الآن. لقد ورثتُ أبنتك الاسم ذاته، فلا تجعلها تراثُ ذاتِ القدر أيضاً!

سقطت الدموع من عينيّ مصباح، قال بصوت مبحوح ونبرة يملؤها الأسى:

— لم أفعل شيئاً رغماً عنها صدقيني..

أجابته:

- ويحيا لك فلن تتغير أبداً، تتفنن دوماً بإلقاء ذنبك على الآخرين، كانت الفتاة لم تبلغ عامها السابعة عشرة بعد، أي كانت في سن يكبرُ أبتك الان بحوالي ثلاث سنواتٍ فقط..

بينما أنت كنتَ رجلاً في بداية عقدك الثالث، متزوجاً ولديك طفل، لكنك فضلت أن تعيش حياتك بين سُكرٍ وعهر. ولم يكفيك كل هذا بل دمرت أيضاً حياة فتاة بريئة. يا لك من رجل وغد، ما زال ذنبها عالماً في يديك.

- أعلم بأن أثمها عالماً في يديّ إلى يوم القيامة، ولكن صدقيني حدث الأمر في لحظة، لم أكن مدركاً لشيء، ليتك تعلمين يا راوية... كم كانت.. كم كانت الفتاة حلوة.. ولطيفة تشعُ براءةً وطُهر..

أتذكر مرةً كنتُ غاضباً من تلك الزوجة الخرقاء، حتى أنني لا أريدُ أن أذكر أسمها، فذكرها تفسدُ مذاق فمي، لا أعلم لما كانت تلك الغيبة تشبهُ بوغد مثلي؟

أما تلك.. تلك الحلوة فقد كانت تأتي إلى منزلنا مراتٍ مع أمها، ومرات لوحدها طالما كنتُ غير متوفرًا في المنزل. كانت تخافُ مني كلما رأتني في الطريق تُسرِع بخطاها هاربةً. ولكن هل تعلمين بسبب من هذا كله؟ بالطبع بسبب تلك الخرقاء، بغائها دومًا كانت تفقدني أعصابي.

المشكلة بأن الجميع كان يمتقني بسببها، يحبونها، بينما يكرهونني!

حتى أمي هل تصدقي ذلك؟! أمي كرهتني أشد الكره بسببها، تطردني من المنزل من منزلي يا راوية لأجلها هل تصدقي؟ حتى تلك الصغيرة اللطيفة أيضًا كرهتني بسببها!

أبتلع ريقه ثم عاد ليقول:

- ومن بعدها أصبحت الفتاة شُغلي الشاغل، كُلما أغمضتُ عيني رأيتها كلما اقتربتُ من إحداكن تحيلُها..

أردتُ أن أكون محبوبًا لا أكثر، لذا تعمدتُ أن أزور سالم في منزله وكلما ذهبت إلى هناك،

أخذتُ الأغراض التي تحبها من حلوى وغيرها.. وكنتُ كلما رأيتها تمشي خارجًا أنظر إليها بشغف، أتصدقين بأننا قد تبادلنا الرسائل أيضًا، كانت تردُّ على رسائلني باللوم والعتب، ولكن ما كان يطمئن قلبي بأنها ترد على الأقل، وبهذا ضمنت بأني سوف أتسللُ إلى قلبها في لحظةٍ ما.

ذلك المساء عدتُ إلى المنزل باكراً، كما لم يعهدني أحد، أتذكر ذلك، كان هناك عرسٌ في القرية، حينها كنتُ تعيساً ومحموراً كعادتي. عدتُ لأستريح من جلبة الشارع، فأولئك الحمقى لن يكونوا في المنزل، جميعهم حتى أُمي..

دلفتُ إلى حُجرتي، ولكني دهشتُ حينها فقد رأيتُ ملاكاً في الداخل، مرتديَةً فستاناً باللونِ الزهري، صرخت حين رأيتني، لكنني لم أراجع! راحت تسترُ نفسها وتبكي:

- بالله عليك لا تقترب.. بالله عليك أن ترحل.

قلبي ينفطرُ كلما تذكرتُ كلماتها تلك، ولكن مثلما عهدتني دومًا يا راوية، رجلاً لا يعرفُ الله.

ولكن في تلك اللحظة أقسم لك، بأن لم تكن لدي نية قط
لأن أؤذيها، فقط بدافع الفضول اقتربت.

أقسم لك يا راوية.. كانت تستطيع أن تهرب، أن تضربني
بشيء ما على رأسي، مثلما فعلت الآن. ولكنها لم تفعل!
قولي لي ما تفسيرك لهذا؟ رغم خوفها بتأكيد كانت ترغب
بي..!

هل تصدقين؟ كان مذاق القبلية الأولى ألدَّ من جميع لحظاتها
معاً، يا راوية. بكاؤها وهي بين يدي في تلك اللحظة أشبه
بلحن هادئ.

لم أدرك ما فعلته إلا بعد فوات الأوان. حتى ذلك الحين
كانت لا تزال إلى جانبي، هل تصدقين؟
أجابته بغضب:

— اللعنة عليك! لا تقع النساء في بيوت العهر والرذيلة إلا
بسبب أوغاد مثلك. استغللتها، واغتصبت براءتها، ثم تأتي
اليوم لتزعم أنها هي من أرادت ذلك؟

أُثْلِقِي بِالذَّنْبِ عَلَى فَتَاةٍ تَسْلُتُ إِلَى قَلْبِهَا بِاهْتِمَامٍ زَائِفٍ، ثُمَّ
حَاصِرَتْهَا حَتَّى حَشَرَتْهَا فِي الزَّائِفَةِ؟ مَاذَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تَفْعَلَ؟

سَحَقًا لَكَ! أَنْتِ لَا تَعْلَمُ عَمَّا عَشَتْهُ فِي الْمَاضِي، وَكَمْ وَقَعَتْ
بِيَدِ رِجَالٍ مِنْ أَمْثَالِكَ! وَلَكِنِّي نَجَوْتُ، لَسْتُ صَفِيَّةً، لَسْتُ
ضَعِيفَةً مِثْلَهَا.

لِذَلِكَ اخْتَرْتَنِي مِنْ بَيْنِ امْرَأَتَيْنِ رُبَّمَا أَحَبَّتَاكَ بِصَدَقٍ. لَيْسَ
لَأَنَّكَ أَحَبَبْتَنِي، بَلْ لِأَنِّي أَكْثَرُهُنَّ شَبْهًا بِكَ. فَالْمَرْءُ بِطَبِيعَتِهِ
مَيَّالٌ لِمَنْ يَشَبْهُهُ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ أَيُّهَا الْحَقِيرُ؟

ابْتَسَمَ سَاخِرًا:

- فَعَلًّا، فَأَنْتِ الْمَرْأَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَمْ أُزْدِرِ نَفْسِي بِجَانِبِهَا. مَا
كَانَ طُهْرُكَ كَافِيًا لِزُبُرِكَ نَجَاسَتِي، كَلَانَا سَبَحَ فِي الْوَحْلِ
ذَاتِهِ!

ابْتَسَمَتْ عَلَى مَضَضٍ:

أَحْذَرُكَ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ: بَأَن سَالِمًا الَّذِي رَأَيْتَهُ اللَّيْلَةَ،

ليس سالم الذي عرفناه بالأمس، نظرته مختلفة؛ أنه ينظرُ
كما تنظرُ الذئاب إلى فرائسها. فلا تجعل سُكْرَكَ يُعميك.
قالت ذلك، وعمَّ الصمت.

كنتُ مصدومًا مما سمعتهُ للتو، تلك الفتاة المسكينة ماتت
بسببه إذاً، هذا ما كانت تُرمي إليه الجدة!

استدرتُ مغادرًا، مشوش الذهن، ورأسي يعجُّ بفوضى
كثيرة. زادَ الخوف في قلبي، ولكن يديَّ مكبلتين، لو كان
بإمكاني أخذ صفية والهرب من هنا بعيدًا.. بعيدًا.

ولكن العجزَ يطأطئ نواصي الرجال؛ فما كنتُ أملك في
جيبِي شيئًا، فمن أين آتي بحقّ القرار؟

تلك الليلة لم أُنم، بقيت أتقلّب فيها على نار. بات الأمل
كخرم إبرة، بينما اتسع اليأس باتساع السماء.

كانت ليلة باردة، تلبدت السماء بالغيوم كما تلبدت
الهموم في قلبي،

أنظر إلى كوخى وأرضي وأفكر في حياتي التي تسربت من
بين يدي، كان ثقيلاً على كاهلي ما سمعته هذا المساء.
بدت الحقيقة مرعبة.

- بدى صغيراً في نظري أكثر مما كان عليه.

هذا ما قلته لوليد وهو يجلس بجانبى، لم يكن يفطن للأمر
بعد. رحت أضيف كأني أحدث نفسي:

- امرأتين جريحتين تركهما خلفه ومضى مع عاهرة أشرف
منه! هذا ما رأيته في رواية هذا المساء. إنه جبان يا صاحبي
لا يملك شجاعة المواجهة، فمن لا يواجه نفسه كيف له أن
يواجه العالم؟ لذلك فرّ هارباً كالفأر.

الآن أتضح لدي الصورة كاملة؛ ادركت لماذا قطعنا
الجنة خديجة فجأة. لسنوات لم تطأ خلالها عتبة دارنا، إلا
يوم عزاء جدتي، ولم تُعد بعد ذلك إلا بزياراتٍ متقطعة إلى
أمي ولكن بعد وفاتها ايضاً، لم تقوَ على تركِ صفة أبدأ؛
أحببتها كما لو كانت أبنيتها لا ابنة مصباح. ولكن هل
سيفعل سالم الأمر نفسه؟ لا أظن!

كم امرأة نالت حتفها بين يديّ هذا الرجل؟ سلسلة الظلم
تلك ستستمر طويلاً بعد، طالما لم يجرؤ أحد منا ليقول:
كفى.

ليتني فعلتُ شيئاً في ذلك اليوم وأخذتُ صفية ورحلنا من
هنا.

لم يحاول وليد أن يفهم شيئاً بل ظل يستمع لفضفضتي دون
أي استفسارات، هو أيضاً بدا ما يشغله، ربما مشاعره
الطفولية اتجاه صفية مازالت مشتعلة. لم أحاول النبش
بأعماقه فما في أعماقي يكفيني. إلا أنه أبتسم ساخراً حينما
انهيت حديثي، وقال:

— هل تعلم بأن والدك قام بتأجير الحقل إلى فلاحٍ آخر؟

بدى شيئاً متوقعاً، ابتسمتُ على مضض، ثم انفجرتُ
ضاحكاً، وكأنني قد أصبتُ بالجنون، ورحت أجرّ خطواتي
مبتعداً، نحو الكوخ الطيني.

وقبل الفجر تسللتُ إلى زريبة المواشي، لم يكن قد تبقى
سوى بضعة رؤوس فقط، أخذتهم على كل حال ومضيت..
وبعد ساعاتٍ قليلة عدتُ مجددًا إلى الدار ويدي النقود،
طرقتُ نافذة صفية عدة طرقات، دقائق حتى فتحت،
وحينما رأني بكّت، قلت لها وأنا أمعن النظر في عينيها
الذابلتين:

- مثلما وعدتكِ ذات يوم، لن يستمر هذا الألم طويلاً.

أشرتُ على المال بيدي واضفت:

- قليل، ولكنه يكفي لبدأ من جديد، لنمضِ نحو فصلٍ
آخر وحكايةٍ جديدة نكتبها بأيدينا.

توقفتُ عن البكاء وحدثت بي دون أن تقول شيئاً.

رحتُ اضيف بحماسٍ أكبر:

- هيا يا عزيزتي، ألبسي ما يسترك وأخرجي من هذه
النافذة، تستطيعين فحجمكِ صغير، هيا.. سأساعدكِ فأنا
هنا.

اجابت متلعثمة:

- هل تريدنا أن نهرب يا يعقوب؟ إلى أين؟ أيهربُ المرءُ من قدره يا أخي؟

كان جوابها صادمًا أطفئ توهجي:

- أي قدرٍ تقصدينه يا صفية؟

لم تحب، اضمفت:

هل مصباح، أم سالم، أيهما أصبح قدرك؟ أنا.. أنا يعقوب
أعيشُ فقط من أجلك، أتفرطين بي الآن لأجلهما؟ أنظري
يا صفية ما زالت يدي ممدودة نحوك لا تجعلها تنزل خائبة..
أرجوك!

بكت عاجزة:

- أرحل يا يعقوب، ولا تنظر خلفك أبدًا. أنقذ نفسك يا
عزيزي. أما أنا، فقد كُتِب عليّ كما كتُب على نساءٍ
كثيراتٍ من قبلي.

لستُ شجاعةً مثلك. لا أستطيع المغامرة. سيجدوننا حتمًا،
وحينها ستكون العاقبةُ وخيمة. أذهب أنت وأنقذ ما تبقى
منك، يا أخي.

- لا تجعلِي الخوف يسرقُ عمرِك يا صفية، أمامكِ طريقٌ
طويل، ما زلتِ صغيرة، تستحقين أن تتزوجي رجلٍ يحبكِ
وتحبينه، رجل لا يشبهُ سالم أو مصباح في شيء أبدًا.

صمتت تمامًا، رحتُ اضعف: لا تصبحي مثل أمي يا صفية
إياكِ. كانت تحسبُ استسلامها هو تسليمًا لقضاء الله
وقدره، وما هو بذلك يا عزيزتي، ما هو إلا ضعفٌ وذل.

تبدلت ملامح وجهها لتبدو أكثر جدية:

- قلتُ لك أرحل من هنا، فأنت لا تفهم شيئًا... أيّ
شيء. كل ما تحيده هو إطلاق الأحكام.

- ما الذي تقولينه؟ لا أفهم شيئًا! ماذا تعنين يا صفية؟
فلتخبريني إذًا.

- ما زلت ثائراً على مذلة حبيها، دائم السخط أمام
معاناتها، ولكن تلك المرأة الضعيفة التي تعيرني بها كلما
سنحت لك الفرصة لذلك هي أمي يا يعقوب، أنا أبنيتها،
في المقابل أنت أبئ من؟ أبئ أباك أليس كذلك؟
أحببتها بحدة:

- هل تشبهيني الآن بذلك العريد يا صفيّة؟
- ذلك العريد أباك، مهما بلغ سوءه هو أباك في نهاية
الأمر. وتلك المرأة التي تزدرى ضعفها هي أمك كذلك،
والفتاة الغبية المستسلمة لقدرها هي أختك يا يعقوب.
مصيبتك أنك تصرّ على أن نستقيم كما تريد أنت، لا أن
تتقبلنا مثلما نحن. دائم السخط على كل ما لا يتوافق مع
قناعاتك. أنك تشبهه في هذا ولكن بطريقة أخرى.
صمتت نظرت إليّ وانحالت الدموع من عينيها وهي تضيف:
- أنت أكثرنا إثارة وتضحية. قلبك طيب، وأحن من قلوبنا
جميعاً. لطالما كنت مستعداً لأن تحرق نفسك من أجلنا،

ولكن كفى... أترك دور المنقذ، وأنقذ نفسك أولاً. أرحل،
أرحل من هنا.

أحبك كثيراً يا أخي، لكنني لا أستطيع المجازفة. لست
بحاجةٍ إلى أملٍ زائفٍ لأكون عبئاً عليك، أرحل وكن سعيداً
من أجلنا جميعاً.

قالت هذا وأغلقت النافذة واختفت.

تركتني مصعوقاً، كان كلامها ثقیلاً، لم أستوعب حقاً ما
حدث، لذا عدتُ لأطرق النافذة وأصرخ:

- ويحاً لك يا صفية، هل أُصبتِ بداءِ أملكِ يا فتاة، هل
أصبحتِ خرقاء مثلها، غبية مثلها، ما أضناها هو العشق
أما أنتِ فماذا؟ افتحي يا صفية واجعلينا نتحدث،
افتحي...

لم تجاوب، تركتني وحيداً أصرعُ خيبي. ما بالِ هذه الفتاة؟
لماذا تسيرُ على نطح أمها؟ لما نساء هذه العائلة ضعيفات إلى
هذا الحد؟

الحل بين أيديهنَّ ومع ذلك يصبرنَّ على البقاء مكتوفاتِ
الأيدي، صرختُ:

- حقًا.. حقًا سأصاب بالجنون.

رحتُ أجر خييتي نحو السهول الخضراء التي امتدت على
اتساع نظري، ونظرتُ إلى المال في يدي، وإلى الخطط التي
كنت أرسمها، قد باتت كلها سراب.

لماذا لا أهرب بعيدًا وأنقذ نفسي مثلما قالت صفية؟ أن
أمضي قدمًا دون النظر أبدًا إلى الخلف؟

الطريق مفتوح أمامي، والفرصة بيدي، فما الذي يمنعني إذًا؟
أم حين تعلق الأمر بي صرْتُ سيد المستسلمين؟!

هل تراني جبانًا أنا أيضًا؟ جبانًا لا يملك شجاعة الاعتراف
لنفسه.

رميثُ بجسدي على العشب الأخضر، ونظرتُ نحو السماء
الزرقاء الصافية إلا من سحابة بيضاء تطفو بمهل.

أمامي خياران: أحدهما أن أتبع هذه السحابة وأطفو على همومي، مثلما تطفو هي في السماء. والآخر أن أجثم، مثلما يجثم جسدي الآن في مكانه. وأنتظر قدرتي مستسلماً، وأنظر إلى أين ستأخذني أحداث هذه الحكاية.

فللقدر حيلٌ أيضاً؛ لا تعلم من منكما يختار الآخر: أنت أم هو.

وبينما أنا كذلك غلبني النوم، فنمتُ. وعندما صحت كان قد حلَّ المساء.

عدتُ أدراجي إلى الكوخ وهنا كان مصباح بانتظاري. حين رأيته ابتسمت على غير عادة، وقبل أن يبدأ أحد منا في الخوض بالحديث، أخرجت النقود من جيبي ورميتها له، قال وهو يتناولها:

- رغم انزعاجي مما فعلت، إلا أنني لم آتي لهذا السبب، سيتم زواج أختك بعد غدٍ، أحذر يا بني أن تفعل شيئاً سيئاً إلى سمعتنا؟

قاطعتُهُ مستهزئًا:

- سمعتنا؟ أنظروا إلى من يهتم بالسمعة؟

قلت هذا وضحكت جلاً.. كتم غضبه وأضاف:

- كل شيء تفعله سيكون عقابه وخيمًا عليها، إني
أحذرك. لم يتبقى على زواجها سوى القليل، وأنت طالما
بقيت مهذبًا بإمكانك أن تعود إلى المنزل، أو ترحل إذ
تشاء، مصيرك بين يديك فلا يهمني.

- ومصير صفية ألا يهملك أيضًا؟! ستزوجها برجل عرييدٍ
وماجنٍ مثلك؟! ناهيك عن هذا كله، كيف لك أن تقبل
أن تعطي أبتك لرجل كان لديه ماضٍ مع زوجتك؟

وهنا لم يتحمل، أحمرَّ وجهه غضبًا، صفعني بأقصى قوته،
ودفعني إلى الأرض، قال وهو يجزُّ على أسنانه:

- لا أعلم من أين أتيت بهذه الوقاحة كلها، ولكنك أبني
ولأنك أبني وتحملُ دمي فسأتوقع منك كل شيء...

تراجعت عن كلامي، إن رأيتك ثانية في منزلي أقسم لك
بأني سأقتلك. وها أنا أحذرك الآن أسمعني؟

قال ذلك وركلني بقدمه، ومضى وهو يسب ويشتم.

حين يقع المرء في البئر سيعانق الأفعى، أليس كذلك؟ هذا
ما خطر على بالي في ذلك الوقت.

حتى يفشل هذا الزواج كان ينبغي لي أن أتخالف مع أي
أحد، ولم يكن هناك أحد آخر سواها ليخطر على بالي،
راوية.

أليست هي أيضًا تقف ضد هذه الزيجة، ألم تقول له علنًا
لن أسمح بهذا الزواج؟ ما الذي حدث إذًا، ألم يكن يطيعها
وينفذ كل ما تقول؟

كان يجب أن أصل إليها وأفهم ما الأمر دون أن يعلم
مصباح، ولكنني لن اتسرع، هدأت من روعي حتى الليل..
وخلال هذا الوقت عصفت بي الأفكار، ماذا لو راوية قد
غيرت رأيها، ووافقت على هذا، كيف سأفعل حينها؟

هل سأرضخ أنا أيضًا وأستسلم لهذا الأمر؟

لم يعد هناك وقت أبدًا للمماطلة. فبعد غدٍ، ستتحوّل حياة
صفية إلى كابوس، ستعيش القدر ذاته الذي عاشته أمي مع
مصباح أو ربما أسوء منه.

لم يكن لدي خيار، أو فكرة أخرى تحجّني عن اللجوء إلى
راوية. لذا حينَ حان الوقت، اسرعتُ نحو الدار، كانت
الساعة تشيرُ حينها إلى العاشرة مساءً، وكالعادة كان
مصباح يسامر أصحابه، يمضغون القات ويدندنون مع
الطرب الذي دوى صوته عاليًا. فقد عادوا جميعًا بعد تلك
الحادثة وكأن شيئًا لم يكن.

اختلستُ النظرَ واستدرتُ متسللاً بهدوء نحو الجهة الخلفية،
حتى أدركتُ باب المنزل، أزحتُ مزلاج الباب عن قبضته.
فدومًا ما يغلقُ مصباح الباب من الخارج، حتى أنتهى من
سهرته، دخل دون أن يطرق. ولكن ما أن أزحتُ المزلاج
حتى تبين لي بأن الباب أيضًا قد أُغلقَ من الداخل!

استغربتُ ذلك، ولكن لا بأس، عدتُ لأبحث عن طريقة أخرى لأدخل. كانت لدي طريقتان: الأولى أن أصعدَ نحو السطح، فأتسلل إلى الداخل من الدرج، ولكن إن كان الباب الداخلي مغلق فلن أن أستطيع العبور.

أما الثانية كانت في الدخول عبر نافذة المطبخ. مشيتُ نحوها سريعاً، وأنا أدعو أن تكون مفتوحة. والمفاجئة كانت مفتوحة بالفعل! ولكني حينما رأيت السُّلَّم مرتكزاً نحوها، أثار جزعي، همستُ مرتاباً:

- من في الداخل؟

صعدتُ إلى أعلى، دلفتُ من النافذة وهبطتُ بواسطة الكرسي الموضوع أسفلاً، كان الوضع ميسراً جداً لأن أتسلل بهدوء، وهذا يدلُّ بأن أحداً ما قد تسلل قبلي بالفعل!

أخذتُ سكيناً من الدرج، ومشيتُ على أطراف أصابعي إلى الداخل، كانت الصالة هادئة تماماً،

لا شيء يدعو للريبة، تقدمتُ نحو حجرة صفية وضعتُ يدي على قبضة الباب حاولتُ أن دفعه قليلاً إلا أنه كان مغلق.

في تلك اللحظة سمعتُ صوت آتٍ من حجرة راوية، تقدمتُ نحوها وضعتُ أذني على الباب لأسمع ما كانت تقول:

- سأفعل كل ما تريد، صدقني يكفيني بأني سأكون معك أخيراً.

وبذات اللحظة، انحنى مقبض الباب إلى أسفل معلناً عن خروج أحدهما، اسرعتُ بالاختباء ومن خلف الدولاب استرقتُ النظر، خرجتُ راوية تنظرُ يمينا ويساراً، وما إن أطمئنت لعدم وجود أحد أشارت له بالخروج.

لم استوعب بدايةً ما الأمر، حتى رأيتهما امامي يقبلان بعضهما بحماسة، شعرتُ بالغثيان من هول الصدمة، وكدتُ أصرخ.

نعم، حدثت بينهما علاقةٌ مشينةٌ في الماضي، ولكن ليس
إلى هذا الحد. ألا يتوب المرء ابداً؟

مشى سالم بعدها سريعاً نحو المطبخ، متسللاً إلى الخارج،
قامت بإغلاق النافذة، وحملت الكرسي بيديها لتعيدهُ إلى
مكانه.

لم يبقَ حينها سوى أن تزيح مزلاج الباب عن قبضته من
الداخل، وهكذا تكون قد أزلت جميع الشبهات. ولكن ما
إن استدارت حتى صُعقت حينما رأتني امامها، شاحب
الوجه أحملُ سكيناً في يدي!

ارتعدت أوصالها من شدةِ الخوف، كادت أن تصرخ، إلا
أنها لم تفعل. تملك الخوفُ قلبها حتى شُلَّ لسانُها عن الكلام
للمحظات، بقت تحديق بي والدمع يطفُر من عينيها، حتى
اقتربت نحوي:

- صدقني ليس كما تظن، الأمر مختلفٌ تماماً عما رأيت..
دفعتها عني وقلْتُ باثمناز بالغ:

- يا لكِ من امرأةٍ دنيئةٍ يا راوية، جعلتني حقاً أشعرُ بالشفقة
اتجاه مصباح.

أجهشت باكية:

— أذهب يا يعقوب، ولا تخبر أحداً بما رأيت، أرجوك
أذهب.

— لن أذهب يا راوية حتى تأتي لي بصفية فترحل سوياً وإلا
فضحتك الآن..

قلتُ ذلك ومشيتُ نحو حُجرة صفية أطرقها، إلا أنها لم
تفتح، صرختُ:

أتحبسونها في الداخل أليس كذلك؟

— المفتاح مع مصباح اقسام لك أنه ليس معي، أرجوك أرحل
الآن.

قالت هذا وهي تتشبث بي، دفعتها بعيداً، فعادت سريعاً
لتلتصق، فصفعتها على وجهها.

واتجهتُ نحو الباب الخارجي لأطرقه، وفي تلك اللحظة،
نكّشتُ شعرها، وغرزتُ اظافرَها في جسديها ووجهها،
وصرختُ بأعلى صوتها.

لم أستوعب بدايةً ما الذي تفعله، إلا حين دلف مصباح
مخطوف اللون، يصرخ:

- ماذا هناك، وما إن رأني حتى أحمرت عيناه غضبًا،
صرخت وهي تلطم خديها:

- تعال يا أبا يعقوب وأنظر ما أبنتك صانعٌ بي، لقد جاء
لأخذ صفيه، يريد أن يفضحك بين الناس.

وقبل أن أقول شيئًا، تقدم نحوي سحب السكين من يدي،
وغرزها بتلك السرعة في بطني.

كانت اللحظة تشبه الحلم، كل منّا نظر في مقلة الآخر،
قال:

- كنت قد أخبرتك بأني إن رأيتك سأقتلك، أليس
كذلك؟

طفرت دمعة ساخنة من عيني، أردت أن أصرخ أن أخبره بما
رأيت، ولكني لم أستطع! حتى وإذا أخبرته ما الذي سيتغير؟

وبهدوءٍ رحْتُ أمشي نحو الباب أجْزُ خلفي صمْتًا ثَقِيلاً،
وما إن دلفْتُ خارجًا حتى راح أصحابُهُ يحاوطونني
ويصرخون عليه، إلا أنني ابتعدْتُ عنهم جميعًا وتابعتُ المضيَّ
طويلاً، مترنِّحًا في الطريق.

حين تَهْطُلُ الغيومُ الباكياتُ دمعها هتانًا صامتًا. أتابع سيري
في أرضٍ قريتنا بخطواتٍ ثقيلة، والدمع من الأحداق يذرف.

سرتُ بلا هُدى حيثُ قادتني قدماي نحو أمي وما إن
وصلت، حتى جثوثُ أعانقُ قبرها بجسدي المبلَّل بماء المطر
والدم. وأحشو وجهي في ترابها الطاهر. إن كنتُ سأموت
فسأختار الموتَ بين ذراعيها.

وصرختُ بأعلى صوتي للمرة الأولى، حتى راح صدى صوتي
يترددُ في الأفق، وتمنيْتُ حينها الولوجَ في رحمِ أمي دون
عودة؛ أن أعودَ إلى لحظةٍ قبل الولادة، وألا ألدَ تلك المرحلة
التي تندفق فيها محمومًا بشهوة الانتصار ولا تنتصر، أن أقرّرَ
بأن أكون الخاسر في معركة الحياة، وأختار بمحض إرادتي أن
أكون العدم.

ولكن المرءُ فينا مذ الأزل بفطرته يسعى جاهداً أن يحيا،
يستمر بالولوج عبر المضيق، ليفوز بفرسته الأولى، فيعودُ
مجدداً من نافذة الحياة الضيقة التي ولجَ منها.

وكأنَّ الحياةَ مذ الأزل تمارحنا بذهابٍ وإيابٍ سرمدي لذاتِ
المضيقِ الضيقِ، الذي ولجناه برعشةٍ لذة، وعُدنا منه بصرخةٍ
ألم.

كائنٌ صُنع من شهوةٍ محمومةٍ لقدرٍ محتوم، مجهولٍ، وأُتيثُ
إلى المجهول الأعظم منه فارغَ اليدين؛ هكذا أهدقَ بلا
حيلة، وكلُّ حيل الكون تسري في داخلي.

أرتعش جسدي حتى سكن، وانتهى كلُّ شيء، أو هكذا
شعرت؛ تلكَ الحالة التي تكون فيها موجوداً وغير موجود في
آن واحد. ذهنك صاحٍ، ولكنك مغيب؛ شيءٌ من الشيءِ
واللاشيءِ في الوقت ذاته.

في تلك اللحظة، اقتربَ ظلُّ رجلٍ ما نحوي، حملي بين
ذراعيه وذهب.

— لماذا أنجذتني؟

هذا ما عاتبْتُ بهِ وليد عندما فتحتُ عيني، ما كان يجدرُ
بي أن أفتحهما أصلاً، كانت الحياة قد فارقتني مذ زمن
فلماذا أقاوم الآن؟

لأجل من، ولأجل ماذا؟ إن كانت صفية لا تُقدَّر كل هذا
فمن سيقدرُ إذًا؟

لم يعد هناك أحدًا آخر لأبكي عليه سواي؟ قطعةُ لحمٍ ترثي
نفسها، أنا الذي لم أفكر بنفسي قيد أملة، حتى أصبحتُ
نكرة في أعينهم، فعلى ماذا أحزنُ الآن؟

حاولتُ أن أنفض من السرير، أن أرحل إلى أي مكان تهربُ
فيه نفسي من نفسي، إلا أن الممرضة أوقفتني، صرختُ بي:
— ما زال جرحُك طريًا، إلى أين ستذهب؟ أستلقِ على سريرك،
سأعقم لك.

وفي الحقيقة كنتُ سأذهب إلى صفية، وهل صفية شيئًا يُتركُ إنها
قلبي، ولا شيء يشفي هذا القلب العليل إلا هي، ولا شيء يعيدُ
بهجة هذه الروح الكثيبة سوى ضحكتها..

نظرتُ نحو وليد، كان حزينًا، غائمًا من أجلي، الوحيد
الذي يجلس في جواري، قلتُ له:

- كيف أجزيك على هذا يا صاحبي؟

ابتسم قليلًا وهو ينظر نحوي وقال:

- كن بخير، هذا ما نريده منك يا صديق.

تبادلنا نظرات حزينة، طفرت دمعة من عيني، سألتُهُ:

- ألم يحلَّ المساء بعد؟

أبتسم على مضض، قال:

- سيحلَّ قريبًا، لقد فعلت كل ما بوسعك يا صديقي،

الشيء الوحيد الذي يقع على عاتقك الآن، هو أن تهتم

بنفسك. فلا أحد يستطيع أن يقف بوجه القدر، ولا أحد

أيضًا يستطيع أن ينقذ شخصًا لا يود إنقاذ نفسه.

ابتلعتُ ريقِي بمرارة، ورحتُ أحدثهُ مقاومًا للألم الذي أشعرُ به:

- هل تعلم أين المشكلة يا صديقي، نحن كعائلة لا نعرف كيف نُحب أنفسنا! إذ كان لدي خطأ واحد اقترفته بحق صفية، هو أنني لم أحب نفسي كفايةً من أجلها.
لم أعلمها كيف تختار نفسها على الجميع، وتقول أنا.
جميعًا تبرمجنا على أن يحترق كل منا لأجل الآخر، فاحترقنا جميعًا في النهاية.

صمتُ قليلًا ثم اضفت بقلبٍ منقطر:

- والآن كيف ستعيش؟ ستكرر كل ما فعلتهُ أُمي بحق ذاتها. لن تقول كفى، بل ستظل تتجرع كل ما يأتيها من ويلاتٍ بنفسٍ صبورة. ستطبق كل ما شاهدتهُ من أمها.
هكذا تظن بأنها تحمي الجميع باستسلامها. وما هي إلا سلسلة من الذل يا صديقي، ولكني... ولكني... لن أجعلها تفني نفسها.

وهنا عادت الأشجان إلى قلبي، نزعتُ نصل القربة المغذية
من يدي وصرختُ:

- ما زال هناك وقت نعم، نعم، خذني يا وليد إلى صفية
خذني قبل أن ينتهي كل شيء.

امسك بي وليد، وهرعتُ الممرضات نحوي، كنت لا أزالُ
أصرخُ بأعلى صوت، فقامت إحداهن بحقني بإبرة مهدئة،
وما هي إلا لحظات حتى أُغمي علي.

حل الليل، وأكمل القمر، وأشتدَّ بؤس هذه الليلة، التي
أنتهى فيها كل شيء.

عندما تسللتُ من المشفى مساءً بعد أن استيقظتُ على
نداء صفية لي في المنام، تصرخُ وتردد (يعقوب، يعقوب)، لم
ألقى نفسي بعدها إلا أهرع في الشارع نحو صوتها الذي
يتردد صداؤه في رأسي.

ومن حُسن الحظ وجدتُ سيارة ذاهبة نحو قريتنا، صعدتُ
معهم بسرعة، متأملاً أن أصل في الوقت المناسب،

وفي الحقيقة كان الوقت قد تأخر كثيراً، ولكنني كنتُ أدعوا
الله أن تزال موجودة.

أدركُ بأن لا شيء سيفيد. ولكن لدي القدرة بأن أحاول
لأجلها للمرة المائة، والألف والمليون.

هذه صفة لا شيء يعزُّ علي أكثر منها، حتى روعي!

لم يمضي الكثير من الوقت ربما ساعة واحدة حتى توقفت
السيارة، هبطتُ منها، تابعتُ المشي سيراً على الأقدام،
بينما أستمِر أصحابها في المضي في طريقهم..

اضطرتُّ بعدها أن أمشي لساعةٍ أخرى أمتاراً، ألم الجرح
حينها كان يشتدُّ مع المشي، ولكن ما في داخلي أشد
وأقوى.

جاهدتُ السيرَ حتى وصلت. لم يبقَ بيني وبين الدار سوى
الضربة، وقبل أن أخطو نحوه، ارتعدت أوصالي، شعرتُ
بنذيرٍ شؤمٍ يطوفُ المكان، حيث بدا هادئاً كالقبر.

تساءلتُ: هل أنتهى العُرس؟ أم أنه لم يُقام أصلاً؟ ماذا هناك؟

قدمين مرتجفين، وقلْبٌ مترقب، هكذا صعدتُ الهضبة.
تحوّلتُ عيناى يميناً ويساراً. باب حجرة مصباح ورفقاء،
كان مغلق تماماً.

أين صوت العود؟ أين الغناء والطرب؟ آلاء يوجد أحدٌ
هنا؟ أم أننى تأخرتُ إلى هذا الحد.

شعرتُ بضيق فى قلبي، اقتربتُ نحو باب الدار، دفعته بيدي
فُتح من فورة، توسعتْ مقلتاى دهشةً، همست:

- الباب مفتوح!

تماسكتُ نفسى، دلفتُ إلى الداخل كان المنزل مظلمًا
تمامًا، استوحشتُ بدايةً، ولكنى مضيتُ بالمشي التحسُّ
عرضَ الحائط بحثًا عن زرِ الكهرباء، حتى وقعت أخيرًا
أصابعى عليه.

فى تلك اللحظة يد شخصاً آخر وقعت على يدي،

لوى رِسْغِي بشدة، ثم هوتْ يدهُ الأخرى على وجهي .
صُفَعْتُ حينها حتى هويْتُ على الأرض . مر الأمر بسرعة
البرق، لم أفهم ما حدث، ثم فجأةً أشتعل المكان بالنور .
رأيتُهُ أمامي يقهقهُ بجلل :

- وأخيرًا أتيت، لقد انتظرتك كثيرًا أيها الفتى!

- سالم؟!

- نعم، سالم بشحمةٍ ولحمة، سأفضي عليكم فردًا فردًا، أيها
الشاب الصغير ..

صعقتُ لوهلة، ثم صرختُ مناديًا:

- صفية أين أنتِ؟ تعالي إلى هنا.

رفع يدهُ عاليًا وهوى بها مرةً أخرى على وجهي، صرَحَ
محذرًا:

- صفية زوجتي، لا علاقة لك بها الآن.

كلمة زوجتي خرجت من فمه، لتقع كالسهم على قلبي.
أشدت بي الألم، تماسكت بصعوبة.

وفي تلك اللحظة سمعتُ أنينُ رجلٍ من الداخل، همستُ:

- مصباح!

أشحتُ النظرَ عن سالم، واتجهتُ نحو الحُجرة، وبالفعل كان
مصباح ملقى على الأرض مُضَرَّجًا بدمائه. أثر إصابته
بطعنيتين، إحداها في بطنه والأخرى على خصرته. بدا
وجهه شاحبًا من شدة النزيف، أما عيناهُ بقت معلقتين على
خنجر فضي مزدانٍ بفصٍ أزرق، نصلُهُ مصبغ بالدم. ظل
مُلقى على الأرض بالقرب منه.

حينما رأيتهُ شهقت، أصابني الفزع، وتحدثتُ في مكاني
ملتصقًا بعرض الحائط، أما هو فقد حاول أن يقول شيئًا ما
ولكنه لم يستطيع، استمرت الدموع تهطلُ من عينيه اللتين
تجلى فيهما الندم واضحًا. ولكن بعد ماذا؟ بعدما أصبح
جثة هامة تنازعُ الموت!

في تلك اللحظة تقدم سالم نحوه، سريعاً ما أخذ الخنجر من الأرض وغرزه في صدر مصباح، ليشهق من فوره ويغادر الحياة بثلاث طعنات بالخنجر ذاته، الذي ماتت به صفية أخت سالم ذات يوم!

من هولّ ما رأيت ما استطعت الصراخ أو حتى الكلام، شلّ لساني، بعد دقائق، أجهشت بالبكاء، نظرت إليّ وقال:
- نال ما يستحق، إياك أن تُشفق عليه.

صرخت حينها:

- صفية، أين هي؟

لم يُجب، فهرعتُ أبحثُ عنها، المنزل كان فارغاً تماماً، واصلت مناداتها، إلا أنها لم تكن هناك، فذهبتُ سريعاً نحو الخارج. وهنا تذكرت الزريبة؛ مشيتُ سريعاً نحوها.

وما إن اقتربت حتى شعرتُ بدفئها في الداخل، ماج الدمع في عيني، حين سمعتُ أنين صوته، وبصوتٍ مبحوح ناديتها:

- صفية... صفية

كانت ملقية على الأرض، كزهرة ياسمين بيضاء، بفستانها
الأبيض الذي كان مُمزقًا، ما إن رأتني حتى راحت تسترُ
جسدها الذي ظهرَ عليه آثار كدمات.

صعقتُ حينما رأيت الدماء من تحت قدميها الشريفتين
يسيلُ.

دارت وجهها عني خجلًا لتبكي بصمت، بكيتُ معها كما
يبكي الطفل. اقتربتُ منها، أخذتُ يدها أقبلها وأنا أنشج
ببكاءٍ مرير:

- لقد أنتهى كل شيء يا صغيرتي، لقد أخذ بثأره ورحل.
وفي تلك اللحظة جاء صوته من خلفي يقول:

- لم ينتهي كل شيء بعد، وددت لو أن أقضي عليك اليوم
مثلما فعلتُ باباك، ولكن ليس من العدل أن أتركك تموتُ
مرتاحًا، قرير البال. بل ستشقى بذاكرتك، مثلما شقيتُ بها
أنا لسنوات، كلما أطلقت الذكرياتُ سهامها عليك
سيدمي قلبك،

فتغدو في النهاية مجنوناً أو منتحراً على القمم الجبال، أو ربما
على قمة العروس!

أنت من ستروي هذه الحكاية عنا، لتشقى بها وتقاصي
أضعاف ما قاصيته أنا.

صرختُ به:

- لقد أخذت ثأرك من مصباح فما حاجتك بنا يا سالم،
فلتعود الى رشّذك...

أجاب:

- رشدي يأمرني بأن أقضي عليكم فرداً فرداً، ولن أكتفي بذ
لك مطلقاً، بل سأدمّر حياتك وحياة أختك، مثلما دمرّ
والدك حياتنا من قبل.

قال ذلك وأقترّب من صفية، فقمّت بدفعه عنها، وفي الحال
أشهر الجنبية¹⁰ التي يحملها وغرسها في ساقى بقوة، تألمت،
فصرخت صفية وتقدمت نحوي إلا أنه دفعها بعيداً، ثم عاد
إليّ وأنهال عليّ بالضرب والركل.

حتى سقطت على الأرض مغشيًا عليّ، كنتُ أستمع لصراخ
صفية وبكاؤها وهي تقترب منه تتوسل منه أن يتوقف. وبعد
إلحاحٍ منها أستجاب أخيرًا.

في تلك اللحظة أطلت امرأة تناديه من وراء الباب، بدا
صوتها مألوفًا:

- هيا يا سالم.. هيا يا عزيزي دعنا نرحل،

لم يجب، عادت تقول:

- لقد أنتهى كل شيء، ما الذي تريد أن تفعله بعد؟ ألم
تكتفي؟

أبتسم بمكر:

- لم اكنفي بعد يا راوية، فالجميع أخذَ جزاؤه إلا أنتِ. خبأ
الجنبيه خلف ظهره وما إن اقتربَ سريعًا نحوها حتى غرزها في
بطنها.

شهقت راوية، كانت الصدمة أكبر من أن تتوقعها.

انهمرت الدموع من عينيها بحرارة ثم قالت بصوت مبسوح:

- لقد وثقتُ بك.

- أنا أيضًا وثقت بك ذات يوم فختنتني، فأكثر ما تجيده

العاهرات هو الخيانة يا راوية، أليس كذلك؟!

- لقد صدقتك.. كيف فعلت بي ذلك!

قالت ذلك وسقطت على الأرض. صرخت صفية في تلك

اللحظة بأعلى صوتها وهي ترتجف خوفًا.

اقترب نحوها، تدخلت سريعًا لأدفعه بعيدًا، ولكنني لم

أستطع، سدد لكمة سريعة على بطني، فتحت الضمادة

وأنبجس الدم من خلالها، وضعت يدي على مكان الجرح

ليهدئ الألم.

ثم توقفت بصعوبة على قدمي، اقتربت من صفية، إلا أنه

دفعني لأقع مجددًا على الأرض.

جذبها إليه بقوة، حملها بين ذراعيه، وهم مغادرًا، وسط

جلبة صراخ منّا.

كنتُ أصرخ وهي كذلك حيثُ دوى صوتُ صراخها
الباكي يفتتُ القلب، وهي تمدُّ يدها نحوي وتقول:
- لا تتركني.. لا تتركني.

دفعْتُ بجسدي المنهك خلفهما، ورحتُ أصرخ بصوتٍ
مبحوح:

- لا تأخذها أيها الذئب....

سافر صدى صوتي ليهتز في أذنيه، شعرتُ به يحتلج قلبه،
ليتوقف فجأة. مآل بوجهه قليلاً نحوي دون أن يلتفت، ثم
مضى.

رماها كدميةٍ مهترئة في سيارته، نظرَ نحوي نظرةً أخيرة، كان
واضحاً لمعان الدمع في مقلتيه. صعد السيارة، ثم رحل
مبتعداً.

داست حينها على قلبي عجالاتها، وتلاشت روحي بين
دخانها... حينَ ذَهَبَ بها نحو البعيدِ، نحو بعيدٍ لا أعرفُهُ.

أَرْكُضْ خَلْفَهُمَا وَأَصْرُحْ بِاسْمِهَا عَالِيًا:

- صفية.. صفية

وما كانتْ صَفِيَّةُ عَبْرَ سِنِينَ الْعُمَرِ تَنْسَى، إِنَّمَا ذَاكَرْتَنِي!

رحلت، لِيَبْقَى طَيْفُهَا يَسْتَنْجِدُ بِي يَصْدُخُ قَائِلًا: (لا تَتْرُكْنِي..
لا تَتْرُكْنِي).

العودة إلى البداية الأولى..

حوراء..

أَتَخَبَّطُ بِلا هُدًى، لَاهِثًا حَلَفَ شَبَحَهَا الْبَاكِي، وَعَيْنِيهَا
الْوَجَلَتَيْنِ، وَقَدْ انْطَفَأَتْ شَعْلَةُ بَرِيقَهُمَا لِأَبْقَى كَسِيرَ الْفُؤَادِ،
مَجْرُوحَ الْكَرَامَةِ، مَتَخَبِّطًا فِي ظُلُمَاتِي إِلَى الْأَبَدِ.

لِللَيْلَةِ كَامِلَةٍ، سَرْتُ بَعِيدًا حَيْثُ قَادَتْنِي قَدَمَاي نَحْوَ بَقَاعِ
بَعِيدَةٍ. عَبْرَ تَلَالٍ خَضِرَاءَ، أَتَتَّبِعُ عَيْنِيهَا التِّينَ لَمْ تَأْكُلْ شَمْسُهُمَا
عَنِ الْمَغِيبِ فِي قَلْبِي. أَجُرُّ قَدَمِي الْمَجْرُوحَ، وَبَطْنِي الَّذِي يَنْزِفُ
دَمًا.

اتَرَنُّخُ فِي الطَّرْقَاتِ بِلا هَدَفٍ، أَتَتَّبِعُ طَيْفُهَا الَّذِي مَضَى
أَمَامِي فِي عَسَقِ اللَّيْلِ، حَتَّى الْفَلَقِ.

وَبَانْقِشَاعِ الظَّلَامِ تَجَلَّى حَيْنَهَا جَبَلَ الْعُرُوسِ أَمَامِي، بِحَلَّتِهِ
الْخَضِرَاءَ، رَأَيْتَهَا تَلَوُّحُ لِي عَبْرَ مَدْرَجَاتِهِ وَتَبْتَسِمُ، ثُمَّ تَمْتَلِئُ
عَيْنِيهَا بِالْدموعِ فَتَبْكِي..

- من يأتيني بصفية الآن، قلتُ هذا ونشجتُ ببيكاءٍ مرير.

صرختُ باكياً:

- صفية، صفية. منادياً لطيفها، الذي بدأ يتلاشى..

قولي لي:

- أين أنتِ يا عزيزتي؟ يا مقلّة الروح يا نبض الحياة. قولي لي

هل ثمة منعطفاتٍ أخرى تنتظرنني؟

هل ثمة بصيصٍ نور سيضيئُ في آخر النفق؟ أم أنتهى كل

شيءٍ بعدك يا صفية، وبقيت وحيداً في هذه الحياة أعدّ

خساراتي، وأتجرعُ مرارةِ الدلِّ والقهر!

- الموت، الموتُ وحدة من سيحررّني.

هذه العبارة التي ظلت تَرنُّ كجرسِ جنازةٍ في رأسي. كانت

والدتي حينها على حق! فعلى ماذا احتججتُ ذلك المساء؟

في حينِ كانت أُمي أعلمُ مني بآلام القلوب وضياعها.

لو كنت أعلمُ بمصيرِ نهايتي، آه لما فعلت...

بدا وجهي شاحبًا، عيناى كاد يصيبُهُما العمى من شدة
البكاء. اما روحي كادت تبوء إلى بارئها في تلك الساعة.
وقف جسدي الهزيل مترنحًا يقاوم هبوب البؤس، في حين لم
يكن هناك غصنٌ بأسٍ لأتمسك به، فكل ما بداخلي كان
ينهار قطعةً، قطعةً.

ومع ذلك كانت روحي تقاوم الصعود نحو التلال الخضراء،
ولكنها لم تصمد أمام رياح الألم التي عصفت بي.

ليتهاوى جسدي متأرجحًا على الأرض، من أعلى حتى
أسفل. أصطك رأسي بإحدى الحجار فسال الدم، تدفق
ساخنًا من أسفل رأسي، شعرتُ به ينحدرُ على عنقي،
كان الموتُ وشيكًا في عَبَسِ ذلك الصباح، حيثُ كان
المكان يخلو من أي أنسان!

أطلقتُ ابتسامةً وداعٍ. بينما ظلُّ بصري معلقًا نحو قمةِ
العروس، تلك اللحظة التي أوشكت فيها عينيَّ لأن تُغلق إلى
الأبد.

جاءت تركضُ نحوي مهرولةً، وعيناها الكحيلتان تفيضان
قلعًا، شفتيها المرتجتان. بدت كالحلم، وهي تدنو مني،
جلست إلى جوارِي، لامس وجهي طرف جديلتها التي
تدلت أسفل طرحة رأسها البيضاء.

شعرتُ بخفيةٍ وخُدر لم أعهدُه من قبل، حينَ هبت روائح
الجنانِ من بين شفتيها الممتلئتين بالحب، وقد فاحت روائح
أنفاسها المحملة بعبير الزهور، المشاقر، والريحان.

أنظر إلى وجهها الملائكي، بدا مألوفًا إليّ. ربما في يوما ما،
في وقتٍ ما، جمعتني بها ذكرى قديمة.

لترسّم على شفتي شبح ابتسامة، وقبل أن أغمضَ عينيّ،
همستُ لها دون أن أشعر:

- ديني، سأُسدده!

ابتسمت قائلة:

- لا عليك...!

أَنْظُرْ نَحْوَ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ، وَبِرُودَةِ الْهَوَاءِ الْعَلِيلِ تَدَاعِبُ
وَجْهِي، فَأَبْتَسِمُ مَتَكِنًا عَلَى وَحْدَتِي، أَصَارُغُ خِيَابَتِي بِفَيْضٍ
مِنَ الْأَحْلَامِ، وَأَرْسَمَ لَوْحَةَ الْأَحْزَانِ بِفَرَشَةٍ مِنَ الْفَرْحِ.
تَلِدُ مِنْ رَحِمِ أُمِّكَ مَرَّةً، بَيْنَمَا تَلِدُكَ الْحَيَاةُ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ، هَذَا
مَا حَدَثَ فِي حِكَايَتِي، كَلِمَا ظَنَنْتُ بِأَنَّهَا النِّهَايَةُ، كَانَتْ
الْبَدَايَةُ لِحَدَثٍ جَدِيدٍ.
مَتَأَمِّلًا حَقُولَ الْفَرَسِكِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِي، مَتَلَذِّذًا بِأَكْلِ
ثَمَارِهَا.

لِتَتَرَاءَى لِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ، وَكَأَنَّهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَكُلُّ مَا
دُونَتُهُ ذَاكَرْتِي مِنْ مَخْطُوطَاتِ حَيَاتِي السَّابِقَةِ قَدْ (شَلَّهَا
السَّيْلُ)، الَّذِي تَدْفُقُ مَاءُهُ بِدَاخِلِي مَبْلَلًا لِكُلِّ شَيْءٍ.
لِتَفِيضَ عَيْنَ قَلْبِي بِجُزْئِهَا وَيَسِيلُ دَمْعُهُ، يَمْحُو بِهِ حَبْرَ ذَاكَرْتِي
بَعْدَمَا بَلَّلَ أَوْرَاقَهَا النِّسْيَانُ. إِلَّا أَنِّي احْتَفِظْتُ عَنْوَةً بِشَعْلَةٍ
غَضَبٍ بِدَاخِلِي، تَنْبِزُ لِي الطَّرِيقَ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ.

- قولي لي يا عزيزتي متى تشرق الشمس في بلادكم؟ كيف يبدو لون الصباح إذا توهج في سماءكم؟

أما أنا فلا سماء لي إلا عيناك، التي كلما رفعت رأسي عاليًا، رأيتُ خيالهما الذي بدا واضحًا يزاحم السحاب. اشتقت إليك، هل يكفي الشوق لتعودين مطلّةً إليّ من جديد؟

فليس لدي سواكِ، حينَ صحوْتُ ذاتَ مساءٍ وأنتِ بجاني، تهتمين بي وتداوين جراحي. لم يغب عني وجهك المضاء، ابتسامتك المشرقة، أتذكر تلك الفرحة التي تهللت على وجهك عند استيقاظي.

ولدتُ حينها من جديد بين يديكِ، ورقةً بيضاء تستقبل حبرَ يداكِ فأكتبي ما تشائين يا عزيزتي.

كطفلٍ صغير، صرتَ عالمي ودنياي وأحلامي. امرؤ أضاع نفسه فهل اعدتها إليه؟

مرَّ الكثير من الوقت على غيابك، أقتاتُ على حديثك،
قصصك التي رويتها لي، كم تمنيتُ أن تكون إحداها عني
وعنك، عن كلانا في وضعٍ أفضل.

فأنت يا عزيزي أصبحت الماضي الذي لم يأفل عن المغيب،
في ظلِّ إنسانٍ عاجز على أن يتذكر شيء، وليس لي من
رجاءٍ أن أتذكر، فقط عودي.

وسطِ واحةٍ شاسعةٍ من الخضرة، تركتُ كل شيء، قاطعٌ
مسافات، متجهتُ نحو المدخل الجنوبي لمسجدِ أهل الكهف¹²
الذي كان مُطلًا على بركةٍ ماءٍ قد بُطنت كلها بالحجارة.

دلفتُ لداخلٍ مسميًا الله. هبت روائح الأصالة تفوح من
بين جدرانهِ العتيقة، وسقفهِ الخشبي المزخرف، وأعمدته التي
اتصلت بأحجارٍ منقوشة. هيبةٌ تحتاج المكان. تسللَ خشوع
مهيب في قلبي، وترقرق الدمع في عيناوي، فانهمر.

صليتُ كثيرًا، وبكيتُ كثيرًا، جاثيًا على ركبتي متوسلاً الله
أن تعود، أرجوه أن يأتيني بها.

12. مسجد تاريخي يعتقد المؤرخون بأنه بُني على رفات أهل الكهف.

وشكوتُ من هذا العجز والضياع الذي ابتليتُ به. من أنا
إلا أعرج، أَسْمُ صاروا ينادونني به؟ من أنا إلا لقيطُ خرج من
رحم الأيام، بلا أَسْمٍ ولا نسبٍ ولا هوية، مجهولٌ كنكرةٍ
بائسةٍ منسية.

أما هي فقد كانت الوجهة الوحيدة التي تعيدني إلى نفسي،
كلما نظرتُ إليها. حتى الآن لم أعرف لها أَسْمًا أو مكانًا، ما
إن امتثلتُ على الشفاء، رحلت فور اهتمامها بي. قبل أن
اسألها عنها أو عني، ومن أين وجدتي، أو من أين أكون.
وهكذا توالى ولاداتُ الليل والنهار، ليمضِ يومٌ بعد آخر.
ويستمر مجيئي إلى المسجد متضرعًا كل مساء، أُصَلِّي
وأُصَلِّي، حتى يُغشى علي.

جُرُخٌ ما في قلبي لم يبرئه النسيان، حدثٌ ما يصعب تذكره
يفتكُّ بي، يدوي صوتُ أنينه في داخلي مدمرًا كلَّ شيء.
حتى جاء ذلك النهار الذي جُهِضَ فيه انتظاري، أخيرًا
لمسةٌ فرح زارت هذا القلب الجريح.

بينما كنتُ أتعكّزُ عصايَ متجّهٌ نحوَ الحقولِ، كانَ البؤسُ
قد خيمَ في قلبي طويلاً لتبدو علاماتِ الوجومِ واضحةً عليّ.
وما إن رأيتها أمامي حتى تغيرَ كل شيءٍ وانفجرتِ أساريرُ
وجهي ضاحكاً.

أردتُ في تلكَ اللحظة أن أركضَ نحوها، ألثمَ رأسها ويدها،
وأحتمي بوجودها بين ذراعيّ. إلا أن قيودي لم تتسعَ لفعل
ذلك، وآثرتُ بأن أقفَ في مكاني مكتفياً بالنظرِ إليها
والدهشةُ تملأُ وجهي، متأملاً عينيها التي بدت كينبوعٍ تدفق
ماء الحياة غزيراً بداخله.

عيناها اللتان شعرتُ بأنني أعرفهما منذ زمنٍ، راقصتهما ذات
يومٍ بأشهى النظراتِ، وأغدقت عليهما سيل من القُبَلِ.
متوهجتين بنارِ الفتنة والخلود. اشتهيْتُ بهما نارَ الحياة
ونعيمها، وأصبْتُ بلوعةِ الحبِّ، فصرْتُ كلما رأيتُ صورتها
على وجهِ القمرِ أتَهَدُّ.
أقبلتُ تنافسَ الشمسِ إشراقاً، تغطي شعورها بطرحةٍ بيضاء،

ووجهها أشدُّ بياضًا منها. ثمار الجبل كانت كلها قد
تجمعت في وجنتيها ذلك الصباح ليشتهيها قلبي.
مشيت نحوي ومشيتُ إليها، كان جسدي كله يرتجفُ
اشتياقًا، وتفتحت أزهار قلبي حينما اقتربنا. لحظة طيشٍ
كدتُ أحتضنها، لذا توقفتُ على بُعد خطوة منها، أمعنتُ
النظر في عينيها حتى احترقتُ، وتقلبْتُ بين أهدابها حتى
انصهرت، ورحتُ أذوبُ في مقلتيها حتى تلاشيتُ في بحر
الحب.

قلتُ لها والعشْقُ يفوحُ من الأنفاس:

يا ربةَ الحُسن، من سواكِ؟

من ذا الذي جَمَعَ اللَّيلَ والنَّهارَ في عينكِ؟

سبحان الله، سبحان الله..

ثم أردفتُ بصوتٍ أقربَ للهمس،

- ما اسمكِ يا حوراءَ العين؟

لتنفجر أسارير وجهها ضاحكةً، أجابتُ بخجلٍ مترَف:

- حوراء.

ابتسمتُ قائلاً: أسمكِ يشبهك.

وقد سَرَى صدى صُوتها يدغدغُ قلبي، وهي تبادلني أطراف
الحديث بصوتٍ عذب. وكم تمنيتُ وقتها لو قمتُ بإهداء
ثغرها قُبلة. ثغرها الناطقُ بأحرفٍ من نور. إلا أنني لم أفعل،
ما كنتُ أجروُ على حَدْسِ حصونٍ عَفَتِها، أن تنهالَ أنوثتها
متدفقةً بين يدي.

لذلك اكتفيتُ بالنظرِ إليها، كأعمى قد عاد إليه بصره،
أطالعُها بإيمار، وكانت هذه كفايتي. أن تتحدثَ هي
فأموتُ أنا، كما لو كانت ضمةُ الموت تكمنُ بينَ شفتيها،
وودتُ سرّاً لو قامت بضمي بينهما حتى النهاية.

وقد سَرَى قلبي يَنشَخِشُ بحِها ليلَ نهار، ويرددُ أسمها
متنهداً، حوراء.. حوراء.. حوراء. قلبي الأُمّي الذي علمه

حُبُّهَا الْقِرَاءَةُ، كُلَّمَا تَجَمَّعَتِ السَّحَابُ عَالِيًّا مَتَشَكِّلَةً بِكِتَابَةِ
أَسْمَهِا، يَنْفَعِرُ فَاهُهَا ضَاحِكَةً كُلَّمَا رَأَتْني أَقُومُ بِتَهْجِئَتِهِ.

- كَالْبَلْبَلِ الْجَبَلِيِّ صَرَّتِ تَغْرِيدِينَ عَلَى أَغْصَانِ قَلْبِي، يَزْغَرُغُ
حُبُّكَ كُلَّ صَبَاحٍ.

يَصْدَحُ صَوْتُ ضَحَكِهَا الْعَذْبَةِ وَيَذُوبُ قَلْبِي بَيْنَ فَكِيهَا
اللَّذِينَ كُلَّمَا افْتَرَقَا فَاحَ رِيحِ الْحُبِّ، وَقَدْ أَمْسَكْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ
لِجَامِ الْعَشْقِ عَنُودَةً، حِينَ كَدْتُ بِسَطْوَةٍ حُبٍّ أَنْ أُجْذِبَهَا إِلَيَّ.
كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى مَلَأَكْ هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ
لِنَجْدَةِ قَلْبِي، قَلْبِي الَّذِي قَدَّتَهُ الْأَيَّامُ مِنْ دُؤْبَرٍ، وَقَدْ أَتَتْ
لِتَدَاوِيهِ مِنْ جِرَاحَاتِهِ، وَتُحْمِي عَذَابَاتِهِ، وَتَمْسَحُ بِيَدَيْهَا
الْبَلَسْمِيَّتَيْنِ نَدْبَاتِهِ.

- أَنْظُرْ إِلَى عَيْنَيْكِ مَتَأَمَّلًا وَأَرْدُدْ سُبْحَانَ اللَّهِ مِائَةَ مَرَّةٍ،
وَأَطُوفُ مَكْبَرًا حَوْلَ سِوَادِ مَقْلَتَيْكِ يَا مَقْلَةَ الرُّوحِ.
تَتَابَعْتَ لِقَاءَنَا يَوْمًا تَلُو الْآخِرَ. وَبَيْنَمَا كُنَّا نَغْضِي سِوِيًّا بَيْنَ
الْحَقُولِ،

راحت ترقبُ (أبو الكحيل)¹³ الذي واصلَ غناءهُ فوق
الشجرة، أنصتنا طويلاً لزقرتِهِ الشجية حتى طار مرفقاً،
تابعنا النظر إليه حتى تلاشى في المدى.

نظرتُ نحوها بينما ظل نظرها معلقاً في الأفق البعيد،
انتبهت لي، ساد الصمت بيننا للحظات، كل منا راح يتدبر
في وجه الآخر، يبحرُ في عينه، يتوغل فيه.

أخيراً كسرتُ الصمتَ الذي سادَ بيننا حينَ سألتها: من أينَ
أنا؟ وأينَ وجدتني؟ ومن أينَ أكون؟

لم تُجِبْ بل ظلت تنظر إليَّ بصمت، ثم أطرقت برأسها نحو
الأرض وهزته في حيرة، بدت وكأنها لا تملك جواباً.

لم أصرُ عليها، فضلتُ الصمت والحسرة تملئُ قلبي. آثرتُ
بأن أبقى مبتسماً بينما أخذت تنخرطُ بفتحِ مواضيعٍ أخرى.

تحدثنا حينها عن كل شيء، عن الجبل وعاداته وسحر
جماله، عن الورد البلدي والمشاقر والشذاب والريحان، كنتُ
أستمع إليها بينما أصنع لها الحِق¹⁴ لتضعه على رأسها.

13. طائر صغير الحجم له صوت مميز.

14. تاج من الزهور ونبات المشاقر توضع على الرأس.

تحدثنا أيضاً عن سلام الجمال تلك المدرجات الزراعية، التي تبدو للناظر بساطٌ ممتدٌ من العشب الأخضر، تحدثنا عن ثمار الرمان والسفرجل وأكلنا الكثير من ثمار الفرسك.

ثم مشينا طويلاً حتى مررنا بشجرة البُن جلسنا تحتها، ننظر نحو الغروب، حيث مالت الشمس للغرق في لُجّة الضباب، ترسمُ خيوطها نهاية يوم كان غنيًا بالحديث عن كل شيء حولنا، باستثنائنا نحن!

لتنتهي تلك الليلة بذهابي إلى قمة الذي وجدت نفسي مكرّون فيه، وهي كالعادة رحلت إلى منزلها الذي لا أعلم بعد عنوانه.

وبعد ذلك بيومين لم أراها، أؤنب نفسي طوال الوقت، هل أزعجتها في شيء؟ ليستمر غيابها حتى اليوم الثالث، حيث أوشكت الشمس على الغروب، في مكاننا المعتاد تحت شجرة البُن، جلستُ هناك انتظرها، وقد عاد (أبو الكحيل) لعشه مغردًا. نظرتُ إليه يداعبُ منقار زوجته وصغاره، خاطبتهُ بئسًا:

- حتى أنت يا أبو الكحيل لديك وطنٌ وعائلة، أما أنا فلا عائلة لي ولا وطن.

ولم أكمل جملي حتى ذهشت حين رأيته مقبلًا، تسارع في خُطاها نحوي. وصلت تلهث، صدرها يصعد ويهبط بسرعة.

وقبل أن تقول شيء ما، تقدمت نحوها متحمسًا، والدمع يفيض من عيناها، اتفحص جسدها وأحمد الله ألف مرة بأنها بخير.

ثم بدأت أصدق عليها بأسئلي:

- أين كنت يا حوراء، وما الذي حدث؟

قالت على عجل:

- جئت لأودعك، عليّ الرحيل، ولكن أعدك بأنني سأعود حتمًا.

صرخت مضطربًا:

- ماذا؟ ما لذي تقولينه؟ أين ستذهبين يا حوراء؟ إلى أين؟
إلى أين؟ لا تذهبي.. لا تذهبي.. لا تتركي هنا وترحلين!
كان الذعر بادياً في بروز عيناى التي أتسعتا على آخرها،
وارتعاشه يداى. أضفتُ:
- خُذني معكِ إذاً..

قالت وقد ماج الدمع في عينيها:

- ليتني أستطيع، ولكني لا أملكُ القدرة على ذلك، ثم
ربما.. ربما يحاربونك!
- من.. من يا حوراء؟؟

صمتت،

- ما لذي يُجبرك للذهاب إذاً؟
قلتُ هذا وأخذتُ يدها لأضعها بين يدي.
- الأعراف.. لولاها سنموتُ يا أعرج..
- أي أعراف؟ وأين وجهتك إذاً؟

- إلى البحيرة.. بحيرة النور.

- ما لذي تقولينه...؟ أي بحيرة في هذا الجبل؟!

- ثق بي، حتمًا سأعود، أعدك..

- من أنت يا حوراء هل أنسية؟ ام جنية؟ ام أنك شيء آخر اخترعه عقلي؟

انبحست دمعاً على خدها، ثم استدارت تنظر نحو الأفق،
تستمع لهمس النسيم وكأنه يناديها. ينزل الدمع من عيني،
ويتحبب قلبي بالبكاء. وقبل أن أحضنها أن أحجزها في
قلبي لتبقى هناك.

أسرعت في الرحيل، وراحت تركض مبتعدة.

جمدت أطرافي كلها فما استطعت المشي، أنظر إليها
عاجزًا، حتى تلاشت...

لم تستمع لنداء قلبي وتنهائاته، ومضت مسرعة نحو الغياب،
تاركة إياي خلفها، أمد يدي في رجاء، لعلها تعود يوماً
وتمسك بها.

وقد وضعت قلبي بين راحتي يديها مستودعاً الله كليهما.
أَتَقْلَبُ بين نيرانِ ألسنةِ الشوق، كلما دبَّ الحنين في
صدرِي.

مستعرضاً حديثنا الأخير، قبل أن تلوج في غيابها. وقد
صدحت أصواتنا ترن في رأسي، وتنبثق مشاهد تلك الليلة
كعادتها مانعةً عني النوم...

بدت الأيام دونها أكثر طولاً تَهْطُلُ بُؤْسًا ومرارة، وفقدت لذة
العيش تمامًا، فقد عاد قلبي ليكونَ وحيدًا كما ولدتُ، حزينًا
كما أرادَ القدر لقلبي أن يكون.

وفي صباح كل يوم أذهبُ بقلبٍ نازف نحو الحقول، تتابعُ
الأيام تلو الأسابيع فالأشهر، وهكذا ذهبَ موسمُ سعادتي
برحيلها، وبقيتُ قيد الانتظار.

كل شيء يدور في فلكه، إلا أنا في فلكها أدور. وأبحثُ
عنها في الحقول، وأفتش عنها بين الزهور، وفي المساء أعود
خائبًا إلى قمة،

أخذ قلمًا وورقة وأرمني بجسدي بين الحشائش خارجًا،
لتمضي ليلتي كلها متنهدًا نحو السماء وأكتب:

— أناظر القمر وأشكو إليه اشتياقك، علّه يخبرك يا حوراء
بأحزاني، لعلّه يهمس لنجمة تسقط إليك تشي بحالي. ولكن
القمر كان مشغول هو أيضًا ولم يهمس للنجمات.

أتساءل هل أنت من تشغلينه، تحتبين داخله؟ تضيئنه
بنورك الساطع، وتقبلينه بشفك البلمي؟! هل يعقل بأنك
صرت تتنفسين الرياح، وتراقصين القمر؟! قولي لي هل
استبدلتي به، تغازلينه تارةً، وتارةً تنامين معه؟!

وصرت بعدك يا حوراء، كلما رأيْتُ القمر أتنهد. وأغار منه
يا حوراء وكأن بيني وبينه ألف مشهد. وكأنه يخفي عني
الكثير من القصص، آهاتٍ وأحزانٍ، وأنينٍ وصراخ. وكأن
بيننا ثار أجهله، كلما رأيته فاض بي مزيج من الحزن
والغضب.

لم أغادر الجبل مدً مجيئي إليه، وجدت نفسي هكذا وليدًا
فيه، أبنه الذي ليس من صلبة،

وقد تنباني لقيطاً حينما لفظتني الحياة خارج رحمها.

لأصبح بعد ذلك بأعرج الجبل، أو مثلما صاروا يُطلقون
عليّ أعرج حِصْن العروس.

أتساءل أين كنتُ سابقاً، وكيف كان حالي، وأي حدثٍ
جاء بي إلى هنا؟

فارغاً من كل شيء، إلا من جروحٍ وندوبٍ تشي بملحمة!
لا أعلم حقاً من أنا، ولستُ متشوقاً لمعرفة. ولكن شعله ما
تحترق في جوفي، نازٍ ما تستعرُ بداخلي يُصعب إخمادها. ربما نار
شوقٍ أو لعلها نازٍ من الماضي تلاحقني.

- عودي ليهدأ كل ما بي من بؤس، عودي لتتطفئ نيرانِ
هذا القلب، فالنار أوشكت في داخلي على أن تأكل كل
شيء،

فلا تجدينَ حينما تعودينَ سوى حُفنةٍ رمادٍ تناثرها الرياح.
وكعادي بقيتُ أياماً أشيعُ حزني في مسجدٍ أهل الكهف، ما
إن أظلم الأفق حتى لذتُ به، أفضي إليه بهمي.

وقبل أن تشرقَ شمسَ ذلك اليوم أشرقَتْ قبلها، بعودتها التي
أنارت الدنيا سطوعًا، ومُلئت قلبي دفئًا، وحبًّا، ورحمة.

كادت عيني لا تصدقُ ما ترى، تفرق الدمعَ فيهما، حامدًا
الله على عودتها ألف مرة.

نتقدم نحو بعضنا بخطواتٍ بطيئة، بينما عينانا أسرع
للتعاقب. أمعنُ النظرَ في وجهها الذي ما خلقَ الله له من
شبيه، أمدُ يدي نحوها والأنفاسَ تحتلج، والقلبُ بين
الأضلاع ينبض راقصًا، فتمور الاشواق في عينيها، ليحترق
قلبي شوقًا، وحبًّا، ولهفة.

همستُ:

— هذه أنتِ.. أخيرًا قد عدتِ، حقًّا؟

أومأت برأسها موافقة والابتسامة ترسمُ على شفثيها، ليعود
الفرحُ إلى قلبي مجددًا يرفرفُ بأجنحتِهِ الملونة.

نمشي سويًا بين الحقول ضاغطةً على يدها التي كالقطن
ملمسها، وأستحلفُها بالله ألا تعود فتغيب ثانيةً.

صمتت وخفضت من أهدابها، ثم تهادت خطواتها مبتعدة،
سرت خلفها وعلى حين فجأة، اختفت، فما عدت أراها،
أنفصّ قلبي مرتعبًا وقبل أن أصرخ باسمها، ظهرت من خلفي
ضاحكةً.

عاتبتها:

- أتلعبين معي يا حوراء؟! أفي شيء كهذا يضحك المرء؟

قهقهت عاليًا وقالت:

- أنا آسفة،

ثم عادت لضحك ثانيةً، ومالي حيلة سوى أن أشاركها
الضحك حينها، تقهقه فيزول همي ويملئ داخلي طربًا
بصوت ضحكتها الرنان.

أنظر إليها كما ينظر المرء إلى حلمه، قلت مفتونًا:

- أتمنى أن أرزق منك أبنه، تشبهك في كل شيء.

تورّدت وجنتاها وفاح عبير حياؤها:

- ماذا كنتُ ستسمِّيها؟

أجبتُ بدون تفكير: صفية،

ابتسمت هي، وتساءلتُ أنا من صفية؟! قالت:

- وإذ كان صبي؟

سرحتُ قليلاً ثم أجبتُ متلعثماً:

- ربما.. ربما يعقوب.

ابتسمت هي، وتساءلتُ أنا من يعقوب؟! سَهَا فكرُها ثم
قالت:

- يبدو أنك قد تذكرت.

- تساءلتُ مندهشاً: تذكرتُ ماذا؟

صمتت كعادتها..

يوم يتبعُ آخر، تلاطمني أمواج الخوف، متى تأتي ساعة
الصففر فترحل. ولأن العيش مع الشك مضنٍ، كان ينبغي لي
أن أفعل شيء ما لتبقى بجانبني دائماً.

وعند حلول الفجر كنتُ قد عزمْتُ على الانطلاق، عبر
الطريقَ الحَلَزُونِي تجاوزْتُ حدودَ الجبل للمرة الأولى.

وبالمال الذي قبضتُهُ من عملي في الحقول رحْتُ نحو
السوق، أخذْتُ ما أتيتُ من أجله وعدتُ إلى حِصْنِي.

كنتُ قد أخبرتها سابقاً، بأن ترتدي من أجلي فستاناً
أبيض، فوافقت خجلةً دون أن تعلم بما أنوي.

اغتسلْتُ، وارتديتُ حُلَّةً جديدةً، وحينما انتهيت، اسرعتُ
الخطى خارجاً. تجاهلتُ تماماً نظراتٍ من في الطريق، حيثُ
بدا الجميع مندهشاً بي.

سلمَ عليّ رجلٌ وحيا بي آخر، وآخرون كانوا يضحكون.
كان هناك طفلٌ رأيَني فهرب، وآخر قذفني بالحجارة،
ولكنني لم أهتم بكل هذا، وواصلتُ طريقي نحو شجرة البُن،
حيث لن يكون هناك سوانا، أنا وهي.

انتظرتها لساعة وساعتين وثلاث، حتى أوشكت الشمس
على الغروب، وغابت.

محاطًا بهزائم عمري كلها، خابَ أُملي فيها، تركتني مجددًا
وذهبت.

حل الليل، وترنَّع القمر عرش السماء سراجًا منيرًا. حينها،
أُطلَّت مرتدية فستانًا أبيض، نظرتُ إليها:
- حوراء،

ابتسمتُ بخجل، قفزتُ من مكاني أمسكُ بيديها، حُطت
دمعة كانت معلقة في هُدبي، مسحَّتها بأناملها الرقيقة،
قبلتَّهنَّ لها أصبعٌ، أصبع. وقلت:

- أنا غريق، من يعصُّمني اليوم من بحرِ غرامكِ يا حوراء؟
فأشواقِي حطمتُ سُفني، كالموج العالي في ليلةٍ عاصفة،
أَتخبطُ بهذا البحر المجنون دون شراع، دليني على مرفأ أستريحُ
به.. دليني.

ثم ركعتُ على قدمي، وأشهرتُ نحوها خاتمَ زواجِ ابنته لها
صبيحة هذا اليوم، ولكن حدث ما هو غير متوقع، فقد ماجَ
الدمعُ في عينيها وخافت، وترددت خطواتها إلى الخلف،

امثلتُ واقعًا، وبصوتٍ مبحوح اضفت:

- ماذا هناك يا حوراء؟ من ماذا تفرعين؟ أليس الحب
يكفيننا.. كالماء يروينا من عطش الأيام.. من الأسقام
يداوينا...؟ تحدثي يا حوراء، قولي شيئًا يهدئ لوعة قلبي.

لم تقل شيئًا سوى:

- أنا أسفه، لا أستطيع يا يعقوب، فأنت من مكان وأنا من
آخر.

صعقتُ وقلتُ متلعثمًا:

- يعقوب، من يعقوب؟

واستدرتُ حول نفسي كالمجنون، أبحثُ عني ولا أراني!

صرختُ:

- أصحي لنفسك يا يعقوب، أنت، أنت، وأنا لستُ أنا.

تابعت حديثها وهي تنظرُ نحو البدر في السماء:

- أنا من أرضٍ بعيدة، أرض بينك وبينها حجاب، وقد
حان الوقت لأعود...!

اجهشْتُ بالبكاء كطفلٍ كسير:

- تتخلين عني مثلما تخلى عني كل شيء؟ قولي لي يا
حوراء.. قولي لي هل اصبتُ بالجنون أو ماذا؟

تسللتُ دمعةً هاربة من عينيها وهي تُجيب:

- لستَ مجنونٌ يا أعرج ولكنك أسير، أسيرُ مأساتك. تحرر
يا عزيزي، تحرر من معاناتك!

ثم اقتربتُ وهي تضعُ يدها على يمين صدري وهمست:

- أنتَ يعقوب، وهذه حكايتك!

توسلتُ إليها:

- لا تتركيني يا حوراء.. بالله عليك لا تتركيني.

صمتتُ، وراحت تتملصُ من بين يدي مغادرة. صرختُ
أرجوها:

- ألم تتعاهد بأن لا فراقَ بيننا إلا الموتُ وحده، فلماذا
تخونين قلبي، وتصغرين من حيي الآن؟
تمتعت، وهي تنظرُ بحزن:

- ليس هنالك من سبيل، إلا أن الودَّ هاربةٌ من حُبكِ!
وراحت تركضُ مبتعدة، ركضتُ خلفها وكل مخاوفي تركضُ
قبلي، كذئبٍ جريح!
وبقلبٍ نازفٍ وقدمٍ عرجاء، استطعت الوثوب إليها أخيراً.
جذبْتُها نحوي، وقد أشتعلَ الغضبُ من الأحداق في ليلةٍ
اكتمالِ القمرِ عوىً عاليًا ذئبُ قلبي الجائع، لينقضَ كل ما
فيّ على كل ما فيها.

ولم أدركُ ما فعلتُ، إلا عندما ضُحَّت الدماءُ الحارة من
تحتِ قدميها الشرفيتين، حينَ غزاها عدوان قلبٍ أرعن،
خاف أن يُترك وحيداً!

وما أردتُ أن أغتالَ حصنُ طهارتها المنيع. أن أكون لصَّ
شرف، ولكنها الحياة. من يضمنُ نفسه فيها!؟

أَنْظُرْ إِلَيْهَا وَالْحَزْنَ يَتَدَفَّقُ مِنْ عَيْنَيْهَا، وَأَنْيُنْ قَلْبُهَا الْمَكْسُور
حَطَمَ قَلْبِي..!

تَسَاقَطَ دَمْعِي بَلَّوْنَ دِمِهَا الْمَسْكُوب، حِينَ لَطَّخَ لَوْنُهُ بِيَاضٍ
فَسْتَأْنَهَا النَّاصِع. وَمَا كَانَتْ قَطْرَاتُ دَمٍ بِكَارَتْهَا، بَلْ بِكَارَةُ قَلْبِي
الَّذِي فُضَّ نَازِفًا أَسْفَلَ قَدَمَيْهَا.

خَارَتْ قَوَايَ، أَقْبَلْتُ قَدَمَيْهَا، اتَّوَسَّلْتُ إِلَيْهَا الْعَفْو..

لَمَّتْ جَسَدَهَا وَانْكَمَشَتْ، خَفِضَتْ أَهْدَابَهَا، وَرَسَمَتْ عَلَى
شَفَتَيْهَا الْمُنْتَفَخَتَيْنِ شَبَحَ ابْتِسَامَةٍ، شَفَتَيْهَا اللَّتَيْنِ تَشِيرَانِ إِلَى
جُرَيْمَتِي، حِينَ عَضَضْتُ عَلَيْهِمَا مُسْتَخْلَصًا رَحِيقَ عَمْرِي
الْمَفْقُود!

أَنْظُرْ إِلَيْهَا مُتَأَمِّلًا حَزَنِي وَقَدْ تَجَسَّدَ فِيهَا يَقُودُهَا نَحْوُ قَمَةِ
الْعُرُسِ.

وَقَدْ أَفْرَعْتُ فِيهَا طِيشَ قَلْبِي الْمَكْبُوتِ، وَجَرَّاحَ الْمَاضِي، وَصَدَمَاتِ
الزَّمَانِ.

وَمَا كُنْتُ لِأَسْخَى فِيهَا كُلِّ هَذَا، وَلَكِنْ لِلْخَائِفِ مُخَالِبِ
حَادَةٍ، كَلِمَا تَمَسَّكَ فِي شَيْءٍ مَا أَرَادَهُ حَقًّا جَرَحَهُ.

وقد جرحتها حبًا، وأردتها فردوس لقلبي لا سقر، وكانت
روضة الجنان التي تسكن قلبي.

أما الآن وأنا أرى عيناها مطفية، عيناها التي يسكن العالم في
داخلهما، وقد أفلت شمسهما غائبة، ليلج الظلام داخلي
متغلغلًا أحشائي، أعاصِرُ أحزاني بلا أمل، حين أمست زهرة
عمرها ذابلة بين يدي.

أنظرُ إليها تترنح حُزنًا بينما تواصلُ مسعاها تائهةً بلا هدى،
أو هكذا بدت، وهي تصعدُ عبر المدرجات الحجرية ببطء.

الهواءُ كان باردًا يلامسُ وجهها بيدٍ خفية، يحملُ رائحةَ
الترابِ الرطبِ وهمسِ أشجار البُن البعيدة، التي باتت تنثُرُ
تحت ظلها ذكرياتنا وأحاديثنا الطويلة.

الضبابُ ينسابُ حولنا في صمتٍ مهيب، والسماء صارت
أقرب إلينا كلما ارتفعنا، حينها كانت تميلُ للسواد العميق،
كسَرَ حدادها القمر الذي صبَّ ضوءه الفضّي على
السفح.

هَبَّتْ الرياح تزداد نحو القمة. وعلى الحافة تمامًا توقف
مسعاها. تطايرت خصلات شعرها المبعثر للتناثر منه
المشاقر، فاح عطره في الأرجاء، لتسلل رائحته إلى أعماقي.
مددت يدي نحوها، وقد رفرف فستانها الأبيض مودعًا
يراقص الرياح. سَمَتْ برأسها عاليًا وبسطت ذراعيها في الهواء
كأجنحة طير.

حُبِسَتْ أنفاسي وتسارعت نبضات قلبي ارتياحًا، أنظفر
الدمع من عيني، همست مرتجفًا:

— لا تفعلني بالله عليك لا تفعلني،

ظلت عيناها معلقتين نحو القمر الساطع في السماء،
ورفرفت كيمامة بيضاء نحو الأفق...

صرخت عاليًا: لا... لا!!!

تلبدت السماء بالغيوم، كما تلبد الحزن في قلبي. لتبدو
السماء حينها كطوق نجاة، شعرت بأني أكاد ألمسها،

والسحاب مرت من خلالي، شعرتُ بنداها الرطبُ يلامسُ
وجهي، في أعلى قمة العروس. بدت البيوت كنجومٍ صغيرة
تومضُ من أسفلي.

صمتُ مطبق، كسره صوت نباح كلبٍ من بعيد، صمتُ
الكلب فعاد الصمتُ ملتهمًا لكل شيء، ليلتهمني أنا أيضًا.
تقدمتُ نحو الحافة، هبَّ الهواء هبوبًا جنونيًا، بسطتُ ذراعيَّ
أعانقُ السماء، لعلِّي أتحولُ لطائرٍ أنا أيضًا.

أغمضتُ عيني، وفي تلك اللحظة التي كنتُ فيها مستسلمًا
للرياح أن تأخذني كيفما شاءت، صدحَ صوتٌ عذب
يرجوني قائلاً:

- لا تتركني، لا تتركني.

شهقتُ حينها، وتوسعتُ مقلتيَّ فزعًا. فشريطُ حياتي صارَ
يعرضُ أمام عيني. كالإعصار دارت بي الذكريات.

صوتُ الطربِ يصدحُ في رأسي، متداخلًا مع صوتِ صفية
الرقيق، ممتزجًا بصوتِ أمي الرحيم.

للتتابع نغماتِ أصواتٍ جميع من مروا عليّ فردًا فردًا. حتى
جاءَ صوتهُ يعوي في الأفق وهو يقول: (فتغدو في النهاية
مجنونًا أو منتحرًا على القمم الجبال، أو ربما على قمة
العروس!)

أطلقتُ حينها صراخًا مدويًا من أعلى القمة.
مؤلفةً جميع تلك الأصواتِ سمفونيةً صاحبة من عزفٍ منقطع
لنشيج منتحب من لذة وألم.

وَدُقْتُ الطَّبُولَ، وَتَنَاثَرَتْ أَجْزَاءُ حِكَايَتِي مَعَ هَبُوبِ الرِّيحِ،
وَسَافَرْتُ كَلِمَاتِي عَبْرَ الزَّمَنِ، وَانْفَتَحَتْ الْعَوَالِمُ كُلُّهَا أَمَامَ
عَيْنَيَّ، فَصَرْتُ أَرَى مَا لَا يُرَى، وَأَسْمَعُ مَا لَا يُسْمَعُ. وَعَادَ
طَيْفُهَا لِيَرَاقِبَنِي، حَيْثُ رَفَرَفَ فَسْتَاؤُهَا الْأَبْيَضَ مَعَ هَبُوبِ
النَّسِيمِ، فِي قِمَّةِ الْعُرُوسِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَانَا أَنَا
وَهِيَ!

النهاية..